

التوجيه الاجتماعي في الإسلام

من بحوث ومؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية

الجزء الرابع

١٣٩٢ هـ
١٩٧٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَأَعْلَمُ مَا يُحِبُّ إِلَهُ جَمِيعًا وَلَوْ تَفَرَّقُوا...)

(قرآن کرم)

تقديم

بقلم فضيلة الأستاذ

الدكتور محمد عبد الرحمن بصر

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله - وبعد

فإن الأثر قد قام بدور عظيم في تاريخ العلم وفي تاريخ الإسلام ،
والمسلمون ينظرون إليه على أنه قبلة يتجهون إليها ومنازة يستضيئون بنورها .

ومجمع البحوث الإسلامية يعمل على تجديد الثقافة الإسلامية ودراسة البحوث وإبداء الرأي
فيما يجد من المشكلات المذهبية والاجتماعية .

وفي كل عام يعقد المجمع مؤتمراً إسلامياً يدعو إليه وفود العلماء من معظم أقطار العالم ، وفي
كل دورة من دوراته يقدم مجموعة كبيرة من البحوث هي خلاصة نتاج علماء المسلمين وعصارة
أفكارهم . وهذه البحوث تطرح على المؤتمر للمناقشة وإبداء الرأي ويعقب ذلك قرارات
وتوصيات .

ولما كانت المجتمعات تتطور ، والمشكلات تتنوع وتعدد ، كان لا بد من اجتماع المسلمين
لحل هذه المشكلات بما يتناسب مع التطور ويتفق ومبادئ الإسلام . ولذا كان لهذه المؤتمرات
أهميتها وقيمتها .

والمجمع يطبع بحوث كل دورة من دوراته في كتاب يوزع في مختلف الأقطار
وقد نفذت معظم الطباعات ، ولا زال العلماء والباحثون في كل مكان يطلبون هذه البحوث ، ونظراً
لأن الموضوعات الفقهية والاجتماعية والشباب متناثرة في كل كتاب ، وقد يصعب على القارئ
الوقوف على ما تطلبه من هذه الموضوعات ونظراً لاهتمام الدول بالشباب في الظروف الحاضرة
تنوع المشكلات في كل المجتمعات والحاجة ماسة إلى معرفة رأى الدين فيها والحلول المناسبة لها .

لذلك رأت الأمانة العامة للمجمع تصليف كتب المؤتمرات السابقة وطبعها من جديد في كتب
ثلاثة يتضمن كل كتاب موضوعات معينة .

الكتاب الأول ويجمع البحوث الفقهية
الكتاب الثاني ويجمع البحوث الاجتماعية :
الكتاب الثالث ويجمع بحوث الشباب :

ونرجو أن يكون طبع هذه البحوث على هذا اللون من التلسيق محققاً للهدف ، وميسراً
للاغبيين في البحث والاطلاع :
وأضع الآن بين أيديكم الكتاب الذي يجمع البحوث الاجتماعية : من بحوث المؤتمرات
الخمسة وفيه الحل السليم لكثير من المشكلات التي يعاني منها العالم الإسلامي في جميع أمصاره :
والوسيلة النافعة للشر الوعي الديني بين الناس ، والطريقة المثلى لسيادة الفضيلة
المجتمعات : : : :

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل :



البجوت

الأزهر في خدمة الإسلام

بنت الخليفة المعز و الرئيس جمال عبدالناصر
لفضيلة الشيخ أحمدهن البانور
عضوالمجمع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

في منتصف شهر يوليه سنة ١٩٦٤ أصدر السيد الرئيس جمال عبد الناصر قراراً جمهورياً بتعييني مديراً لجامعة الأزهر . . وكانت السنة التي مضى عليها الأزهريون كلها ولي أحدهم منصباً رفيعاً ، أن يمضي إلى الجامع الأزهر ليصلي فيه ركعتين قبل مباشرة مهام منصبه الجديد . وقد أخذت نفسي بهذه السنة الكريمة ، فميممت القبلة القديمة في أزهر الفاطميين ، تيمناً وتبركاً ، واستفتاحاً بالذي هو خير وهي الصلاة التي كنت قرأه عين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الأزهر قد خلا يومئذ من المجاورين وطلاب العلم ، فتعطلت الدراسة فيه لتتحول إلى البنابات المجاورة له ، فأقفر بذلك من حاق العلم التي صحبته وصحبها قرابة ألف عام .

وما أن خطوات في صحن الجامع بضع خطوات ، حتى أنكرت نفسي في هذا المكان وأنكرت المكان من حولي ، فقد خيل لي أنني أطوف بأطلال عافية ورسوم بالية ، وخيل لي أنني أكاد أسمع لبكاء الشعراء القدامى الذين تعودوا رثاء الديار وبكاء الأطلال في مثل ما يقول امرؤ القيس :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي

وفي مثل قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بل لقد خيل لي أنني أسمع قيس بن الخطيم يشد قصيدته البائية التي يستفتحها بقوله :

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب لعمرة وحشاً غير موقف راكب

ومنذ ذلك اليوم ، أجمعت أن أستعين بالله عز وجل على إعادة الدراسة إلى الجامع ، مع الدراسة

في الكليات التي شملها التطوير اعترافاً بفضل الأزهر واحتراماً لعواطف محبيه ، ووصلاً لحاضره المرموق بماضيه العريق ، في خدمة المثل العليا وإعلاء كلمة الحق ، فإن الذين يقطعون حاضره عن ماضيهم يضربون في متاهات ، ويسيروا في مضلات ، دون أن يعرفوا لهم غاية ينتهون إليها ، حتى إذا أخذهم التعب ، وأدركهم الكلال ، ألت بهم الحيرة فراحوا يلتمسون مخرجاً مما هم فيه ، فلا يجدون حاضراً يعيشون فيه ، ولا ماضياً يعتزون به ، ولا قابلاً يتطلعون إليه أو يطمعون في الحصول عليه ، والمسلمون مهما تكن فرحتهم بالتطوير وترحيبهم به واطمئنانهم إلى خيره ، عاجلاً أو آجلاً ، لا يستقبلون تعطيل الدراسة في الجامع الأزهر بمشاعر رضىية ، ولا نفوس مطمئة ، فإن تعطيل الدراسة في الجامع الأزهر ، وإخلاء أبنائه وصحونه من العلماء والطلاب ، كان في رأى أهل هذا البلد من الأزهرين وغير الأزهرين محنة تثقل على النفوس ، وتضيق بها الصدور ، وهو الجامع المبارك الذى زامل الزمن ألف عام يعمره المتقون بالصلاة ، والواعظون بالعبظة والإرشاد ، والمدرسون والطلاب بالدرس والتحصيل :

وقد أعان الله تبارك وتعالى ، فعادت الدراسة إلى الجامع الأزهر ، واجتمع فيه شمل الثقافة الدينية العلمية الإسلامية بعد أن شقت هذا الشمل القانون الذى صدر سنة ١٩٣٠ مقسماً الدراسة الدينية الإسلامية العليا إلى كليات ثلاث ، كلية لأصول الدين ، وكلية للشريعة ، وكلية اللغة العربية . مع أن أقدر الناس على الخيلة وأبعدهم تحليقاً في أجواء الخيال لا يستطيع أن يبرر هذا التقسيم العجيب للثقافة الدينية ، فإن الشريعة لا تستغنى عن الكتاب والسنة لأنها قائمة عليهما ، والقرآن وعلومه والسنة وعلومها ، لا بد لفقههما من اللغة العربية لساناً وأدباً وتاريخاً .

والكتاب والسنة لا يستغنيان عن اللغة العربية لساناً وأدباً ، لتوقف فهمهما على معرفة اللغة وإدراك خصائصها وأسرارها . ولقد كان المخجل أن يسأل سائل عالماً أزهرياً عن حكم فقهى فيجيبه بأنه تخرج في كلية أصول الدين فهو لا يعرف أحكام الفقه ، فإذا سأل عن تفسير آية في كتاب الله ، أو صحة سند لحديث رسول الله ، أجابه بأنه متخرج في كلية اللغة العربية فهو لا يعرف معنى الآية ولا سند الحديث ، وكان هذا بلا ريب مدعاة إلى انحطاط غير لائق في المتخرجين في الأزهر الشريف ، ولهذا كانت عودة الدراسة العالية إلى الجامع الأزهر مشتملة على دراسة القرآن والسنة واللغة العربية والفقه الإسلامى وكل ما يخدم هذه العلوم ، جمعاً لشمل الثقافة الدينية العلمية الإسلامية ، وإعداداً للعالم الأزهري القادر على أداء الرسالة الإسلامية والتبليغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانة التى له في أعناق علماء المسلمين :

وكما أعان الله تعالى فعادت الدراسة إلى الجامع الأزهر إلى جالب الدراسة العلمية والمعملية في كليات أصول الدين والشريعة والفائون واللغة العربية والتجارة والزراعة والطب والهندسة والبنات ؛ أمان جلست قدرته أيضاً على تحصيل المدرسين الأزهريين مالم يكونوا قد حصلوا عليه

من وظائف الأساتذة والمساعدين والمدرسين والمعيدين ، شأنهم في ذلك شأن هيئات التدريس في سائر جامعات جمهورية مصر العربية بغير فزوق بين أولئك وهؤلاء ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

قلت إن تعطيل الدراسة في الجامع الأزهر بعد صدور قانون التطوير كان بغير شك خطأ يراه بعض الناس خطيئة ، ولم يكن له ما يبرره ، بل لقد مهد سهيل شكوك لا خير فيها ، وشائعات لا تعتمد على حقيقة ، ولا تقود إلى منفعة ، وذلك أن جامعة الأزهر بغير الجامع الأزهر أشبه شيء بالطفل الوليد الذي فقد أباه لأول عهده بالحياة ، فإن الأزهر هو الذي مهد للجامعة سهيل المعرفة والبروز ، فهى بغيره نكرة لا يعرفها أحد ، وهو بغيرها شيء جليل لا يحفل قدره أحد في دنيا العرب ولا في دنيا المسلمين ، ولا في دنيا الناس أياً كانوا وعلى أى مذهب كانوا .

ثم لا بد ههنا من كلمتين يستعين بهما الناظر على رسم صورة واضحة ، يلتفت بها في نفسه ، وربما نفع غيره ، وإحدى الكلمتين عن الأزهر « أزهر الخليفة المعز » والكلمة الأخرى عن جامعة الأزهر « جامعة جمال عبد الناصر » .

الأزهر

حينما اتجه القائد جوهر إلى مصر لدفع خطر « القرامطة » الذين سادت دعوتهم بلاد العرب يومئذ ، وقد اجتاحتها الشام مراراً ، وأصبحوا أشد خطراً على مصر ، وجه المعز لدين الله الفاطمي كتاباً إلى قائد جيوشه جوهر الصقلي يقول له فيه : « لتدخلن مصر بالأردية ، ولتنزلن في خرابات ابن طولون ، ولتبين مدينة اسمها القاهرة تقهر الدنيا » يقول المؤرخون : فهذا هو سبب تسمية القاهرة بالقاهرة ، وأحب بهذه المناسبة أن أقول ما يؤيد هذا المذهب ، فحين أوفدني السيد الرئيس جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٥ إلى تونس لحضور مؤتمر الحزب الحر الدستوري في صفاقس ، ثم لهنئة الملك محمد الخامس ملك المغرب الأقصى برجوعه إلى عرشه حينذاك ، زرت في القيروان مسجداً شبيهاً بالأزهر ، تقوم إلى جانبه قاعة أخبرني رفقاؤها أنها كانت في القديم مستودعاً للخبرة والسلاح ، وأنهم كانوا يسمون هذه القاعة « القاهرة » قال هؤلاء الرفقاء : وبهذا الاسم سُميت مدينة القاهرة بعد أن دخل القائد جوهر الصقلي البلاد المصرية ، وأسس عاصمة المملكة الجديدة .

وإذا لاحظنا أن التفاؤل طبيعة في الإنسان ، أدركنا أن تسمية هذه المدينة بالقاهرة هي تسمية عربية فاطمية حديثة ، على غير ما يظن بعض الكتابين في هذا العصر الذي نعيش فيه . وقد كان من عادة الدولة الغالبة في العصور الإسلامية أن تضع مع أساس المدينة أساس مسجد ، أخذاً بسياسة ترجع إلى عصر عمر رضي الله عنه ، فقد كتب رحمه الله إلى الولاة وفيهم عمرو بن العاص فاتح مصر وأول ولايتها بهذا المعنى ، فكان العرف أن يتخذ الفاتحون في كل مدينة مسجداً جامعاً ، ولا يخفى أن عمر إنما صدر في هذا المعنى عن السنة النبوية الشريفة ، فإن النبي صلوات الله عليه حين وضع أساس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ، بدأ ببناء المسجد ، وقد مضت هذه السياسة في خطط القواعد الإسلامية الأولى مثل البصرة والكوفة ومدن الشام والفسطاط وقرطبة . فحينئذ تقوم عاصمة إسلامية جديدة يقوم في وسطها مسجد جامع ، وكانت المساجد الجامعة تحمل طابع الدولة ، وتدافع عن سياستها ، وتدعو إلى الولاء لها ، كذلك شأن الفسطاط أول عاصمة للإسلام في مصر ، فقد كان قيام الفسطاط رمزاً لظفر الإسلام بقطر من أقطار الدولة الرومانية ، وكان مسجد عمرو رمزاً لسيادة الإسلام الروحية . وكان المسجد إلى جانب ذلك مركزاً للحلق العلمية والحق الأدبية .

والعاصمة الثانية كانت مدينة العسكر ، التي أنشأها جنود العباسيين إلى جانب الفسطاط ، عقب انتزاعهم مصر من يد الأمويين سنة ١٣٢ هـ .
والعاصمة الثالثة مدينة القطائع ، التي أنشأها أحمد بن طولون لتكون عاصمة للدولة الطولونية .

وبهذا تكون مصر قد عرفت قبل قيام الجامع الأزهر ثلاثة مساجد جامعة ، كل منها يشير إلى معنى خاص ، أولها جامع عمرو وثانيها جامع العسكر وثالثها جامع ابن طولون ، والرابع هو الجامع الأزهر وقد تم بناؤه في عامين وثلاثة أشهر ، وافتتح لصلاة الجمعة في السابع من رمضان عام ٣٦١ هـ الموافق شهر يونيه ٩٧٢ م ، ففي عام ١٩٧٢ م يكون قد سلخ من عمر الزمن ألف عام ، داعياً إلى كل ما من شأنه إسعاد البشرية وبث الطمأنينة في النفس الإنسانية ، ووصل مشاعر الإنسان بخالق السموات والأرض وصلاً تكون معه الحرية الكاملة والسعادة الشاملة والسلام السابغ والنعيم المقيم .

وما من شك في أن أحداً لا يستطيع في كلمات قليلة أن يصور تصويراً مقنعاً الخدم التي أداها الأزهر للإسلام ، والتي أداها للإنسانية من طريق الإسلام ، ومن هنا يكون على أن أشير بإيجاز إلى الخير الذي قدمه الأزهر وجاهد في سبيله على مر الزمن وتعاقب العصور .

لقد كان الأزهر (منذ كان) يطارد الشك والخيرة في المجتمع الإنساني ، ولا يجهل أحد أن مطاردة الشك والخيرة تعني مطاردة الشقاء في المجتمع الإنساني ، فإنه لا شقاء أبين من شقاء الخيرة حين تضطرب بها النفوس ، وحين لا تثبت عليها العقائد ، وقد حمل الأزهر عقيدة الإسلام في سماحتها وبساطتها ويسرها فهدى بها للناس طريق الاستقرار والطمأنينة ، وأزاح بها عن كواهلهم أثقال الخيرة والقلق والاضطراب .

وعقيدة الإسلام في بساطتها ويسرها وسماحتها تتلخص في أن لهذا الكون إلهاً واحداً لا شريك له ، وأن إراته (جل شأنه) في الإصلاح والإسعاد معلقة برسول كريم هو خلاصة خلاصات النبيين والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه العقيدة الإسلامية المسماة تدعو الناس دائبة إلى أن يتحرروا من أثرتهم ونزواتهم ، ليتنبأ لهم بذلك أن يتحرروا من قاهريهم ومستعبدتهم ، ولقد استطاع الأزهر بدعوته هذه أن يجمع من حوله قوى كثيرة في قلوب كبيرة في أمكنة مختلفة من شتى أنحاء العالم ، تحمّل راية الحرية الحقيقية التي تقرر في صراحة أن للعبودية لغير الله ذل ، وأن على البشرية أن تحرر نفسها من كل عبودية لغير الله ، وأن تخلص عبوديتها لله رب العالمين ، فقد كان السلف الصالح الذي قام الأزهر ببث نصائحهم وتعميم الخير بتوجيههم وإرشادهم إذا دعا أحدهم قال : « اللهم أعزني بالذل لك ، واغنني بالافتقار إليك » .

وإذا كان الأزهر الشريف وهو يحمل هذه الرسالة الإنسانية الجليلة مبيناً أن رسول الله عليه السلام ، قد أدى للناس كلهم خيراً عظيماً وخدموا كثيرة ، فأخرج بجهده المشكور بشرأ كثيراً من ظلمة إلى نور ، واستنقذهم من شر إلى خير ، وبعث الموتى أحياء ورد العبيد أحراراً في المحيط العالمي العريض ، فإنه في بلدنا هذا كان أبين نفعاً وأجل خدمة وأكرم ثمراً وأعظم نعمة .

وقد تجتمع أهواء على باطل ، وتنطوى صدور على ضغن ، فإذا الأزهر على ذلك مجرود الحق منكور الفضل ، وربما قال فيه (حتى) أعرف الناس بفضله ، وأقربهم نسباً إليه ، وأبينهم نعمة منه ، ما قال مالك في الحمر ، وما تقول الحرية في الاستعمار .

غير أن باطل الهوى وجامح الضغائن ، ليس في مقدوره أن يطمس حقيقتين كبيرتين ، أفادت بلادنا عنهما من الأزهر خيراً لا يدركه البلى ولا يلحقه النسيان .

وأولى الحقيقتين تتمثل في هذا التجانس الفكرى الذى يتمتع به مواطنونا ، ويعيش آمناً في ظله هذا البلد الأمين ، فقد استحال على المذهبية الضيقة بفضل الأزهر أن تجد لها في بلادنا هذه معاقل وحصونا تلوذ بها الفتن وتحتفى فيها الأضغان ، لتنتطلق منها الحين قاضية على الوحدة بالفرقة ، وعلى التواصل بالقطيعة ، وعلى الأمن بالخوف ، وعلى الاستقرار بالازعاج والاستفزاز ، ومبلغ ما كان من ذلك في مختلف العهود ، لم يزد على نزوات هوج ، ثارت ثم هدأت ، وهدرت ثم قرت ، ومبلغ ما هو كائن أو ما يكون لا يزيد على أن يكتب كاتب مقالا في مجلة ، أو يصيح صائح بخطبة في منبر .

وحتى أولئك الذين يخالف دينهم دين الكثرة الكاثرة من أهل هذه البلاد ، كان الأزهر وما زال يروض على البر بهم جوامح النفوس ، ويوطئ للتعايش السلمى معهم أكتاف الحياة .

وثانية الحقيقتين الكبيرتين تتمثل في مكانة بلدنا هذا بين بلاد العالمين ، فقد صنع الأزهر في هذا الميدان (وما زال) صنيعه الجميل ، وقدم لهذا البلد خيراً كثيراً ، فهو الذى ملأ من هيبة بلادنا هذه صدور أعدائها ، بمقدار ما ملأ من المحبة والمودة صدور أوليائها ، والبلاد التى تجد لها في شتى جوانب الدنيا عداوات تتملقها ومودات تتقرب إليها ، وغضب لها ، وتحرص عليها ، هى بلاد منيعة شديدة المنعة ، عزيزة باللغة العزة .

وكان من حق الذى يصفى أو يشارك في إضفاء المجادة على الماجدين ، وفي إسباغ الأمن على الخائفين ، أن يلتقى من العكرمة ورعاية الحرمة ما تلتقى المجادة نفسها من التكرمة لها ، وما يلتقى الأمن نفسه من الاعزاز له والحرص عليه ، وبهذا كان من حق الأزهر وقد قدم باسم الإسلام لبلادنا من الخير ما قدم ، وهياً لها من هذا الطريق ما هياً ، أن يلا من مواطنيه ما يلقاه سبب من أسباب خيرهم ، وركن من أركان مجدهم وعزهم ، سواء في ذلك من يتفق معه ومن يختلف عليه ، فإن الخير المجلوب به ، والأمل المعقود عليه ، والعواطف الغالية الطائفة باسم الحق من حوله يشترك في خيرها جميع المواطنين ، سواء منهم أهل الدنيا وأهل الدين ، بل سواء في ذلك أهل المسيحية وأهل الإسلام .

غير أنه إذا كان للهوى أن يمحذ الحق ، وللضغن أن ينكر الفضل ، فإن في ثواب الله للمخلصين من القائمين عليه والعاملين فيه والراعين له ، أجمل العوض وأحسن الجزاء .

على أن حق الأزهر ليس أول حق مجهود ، ولا فضله أول فضل منكور ، فما أكثر ما جحد الناس حتى حق خالق الناس ، فأذكروا نعمته عليهم ، وأطلقوا فيه (سبحانه) ألسنتهم ، ومأثور أدبنا يروى أن زكريا عليه السلام سأل ربه أن يجنبه مقالة الناس فيه ، فقال له الله جل وعلا : « يا زكريا تسألني ما لم أستصفه لنفسى ، فكيف أستصفه لك » .

ولعل من الخير أن نذكر الناسين أو ننبه الغافلين ، الخطأ الذى يهلبغ منزلة الخطيئة ، فى تجاهلهم عناية الأزهر بالمرأة من قديم ، فينصرفون عن نسبة الفضل إليه فى هذا المعنى وينسبونهم إلى غيره من أفراد أو جماعات ، جاهلين أو متجاهلين : والذين تيسر لهم أن يقرأوا ما كتبه المرحوم الشيخ محمود أبو العيون عن المرأة فى حلق العلم فى الأزهر يرون أن وجود المرأة فى حلق العلم هذه ، ظل قائماً إلى عهد قريب ، ولم يفت هذا المؤرخ رحمه الله أن يشير إلى تلك السيدة الفضلى التى درست العلم الأزهرى الإسلامى حتى بلغت الملة التى تسمح لها بنيل شهادة العالمية الأزهرية ، ولو أنه كان قد ترك لتلك السيدة أن تيجاز ذلك الامتحان ، ولولا أطياف من الوهم كانت تلم ببغض الرؤوس يومذاك ، لمضت سنة تعليم المرأة فى الأزهر إلى غاية بعيدة نبيلة ، ولظفرنا بمجتمع أجمع للمعانى الخير ، وأدنى إلى روح الإسلام ، ولكان لنا أن نتي بيوتنا شر الجهل ، أو شر علم هو فى كثير من الأحيان شر من الجهل ، ولكن هكذا قضى الله ، وما ضاع من مالك ما وعظك ، فقد دفعنا هذا إلى إنشاء كة للبنات ، يرجى أن تكون فى مستقبل قريب جامعة للبنات إن شاء الله .

لقد خدم الأزهر الإسلام ، ولا يزال يخدمه ، وسيظل يخدمه ما امتدت به أسهاب الحياة ، والإسلام ليس سوى إسعاد للإنسانية ، ورفع لحسيتها وتحقيق للكرامة التى كرمها بها رب العالمين فى قوله سبحانه : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والسبحر ورزقناهم من الطيبات وقضناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) (١) .

وربما كان أعون على الفهم وأدنى إلى النفع أن نلخص ما أداه الأزهر الإنسانية من خدم عن طريق الإسلام فى كلمتين :

أولاهما : الحرية .

والثانية : العدالة الاجتماعية .

فأما الحرية فإنها فى رسالة الأزهر تنبع من الإسلام الذى قام على نشره والدعوة إليه والانتفاع به الوافدون على الأزهر المعتزون بالانتساب إليه .

والحرية التي تنبع من الإيمان بالله والاعتراف به والثقة فيه والالتجاء إليه ، هي أعز وأسمى وأجل وأعظم ما تتناول إليه أعناق طلاب الحرية في كل عصر وفي كل مكان .

وعن الحرية من وجهة النظر الإسلامية هذه مضى فقهاء المسلمين يقومون الحرية تقويماً يرتفع بها إلى منازل لم يقدرها أحد ولم يسم إليها أحد كما قدرها وارتفع بها فقهاء المسلمين .

وهذه صورة تشير إلى ذلك المعنى ، وتدل على هذا السمو دلالة لا يحوم حولها شك ولا يرقى إليها غبار جدال ، وخلاصتها أنه إذا ترفع إلى قاضي المسلمين في وليد لا يعرف أبوه رجلان ، أحدهما مسلم والآخر مسيحي ، فقال المسلم : هذا عبدى ، وقال المسيحي ، هذا ولدى . فإن على القاضي المسلم أن يحكم بهذا الوليد للمسيحي ولدا ، ولا يحكم به للمسلم عبداً .

والذين يطيب لهم أن يقفوا عند هذه الصورة متأملين ، ويقيسوها إلى ما يتراءونه اليوم في دنيا الناس من الحديث عن الحرية والتشدد بها ، لا يكادون يجدون لهذه الصورة مثيلاً في خيال شاعر مهما علا ، ولا في قلم كاتب مهما غلا ، ولا في واقع شعب مهما بالغ في حرصه على الحرية وتقديسه إياها .

ووجه العظمة في هذه الصورة أن الفقيه المسلم يضع تعضبه للحرية في منزلة أعلى من تعضبه لدينه ، على ما في التعصب للدين من قوة القاهرة وسلطان عظيم .

وأما العدالة الاجتماعية ، فلإنها تستند في نفس المسلم بجميع صورها - إلى العقيدة التي يؤمن بها ، ويدين الله تعالى عليها ، وتطرق سمعه كل يوم آيات الله في الدعوة إلى العدل واحترامه ، وتكريمه وتكريم من يرى الدنيا بغيره شبحاً بغير حقيقة وجسماً بغير روح .

والعدل صور عرض لها جميعاً للقرآن الذي يتلوه المسلمون في عبادتهم ربهم وفي إقامتهم صلاتهم ، والقرآن الكريم يدعو إلى العدل دعوة لا تقوم لها دعوة في كل ما عرف الناس من دهوات تحت على العدل وترغب فيه ، وتحذر من تركه والتجهم له ، فإن هم جاوزوا القرآن إلى السنة ، رأوا من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الترغيب في إقامة العدل ما تكاد تتمثل به الجنة في أعين العادلين ، وما تكاد تتمثل به النار في أعين الظالمين ، بل في أعين الذين يرضون بالظلم وهم قادرون على مجانبته والبعد عنه والفرار منه .

فمن صور العدل في القرآن ، العدل في الشهادة على ما يقول الله عز وجل : في سورة النساء « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن

غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعلمون خبيراً » وعلى ما يقول جل شأنه في الآية الأخرى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ .
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)^(١)

ومن أجل صور العدل التي تحتاج إليها الإنسانية ، ولا يستغنى عنها ، ولا يقوم بغيرها مجتمع آمن أو سعيد ، العدل في توزيع الثروة ، وهي الصورة التي بدعو القرآن إليها ، ولا تسكاد تنفك الدعوة إليها عن الدعوة إلى الصلاة ، وذلك أن الإنسان لحم ودم ، ثم نفس وروح ، ولكل من الجانبين خصائص ومطالب ، فإذا كان الإنسان في نفسه وروحه محتاجاً إلى الصلة بالله ، وهو كذلك أبداً ، فإنه في جسده — في لحمه ودمه — محتاج إلى الطعام والشراب ، وبهذا المعنى يدرك المسلم الفاقه اقتران الدعوة في القرآن إلى الصلاة بالدعوة فيه إلى الزكاة ، فإن في الصلاة وفي الزكاة رياء وشعباً لروح الإنسان وجسده جميعاً ، وبهذا النظر أيضاً يستطيع المسلم الفاقه أن يفهم السورة الكريمة : «لَا يَلَافِ قُرَيْشٌ ، إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»^(٢)

وإذا كان الأمن في هذه السورة يعني الطمأنينة ، ونفي الخوف عن النفس من عدو متربص أو قوى مغير ، فإن الصلة بالله واللبجأ إليه بإقامة الصلاة مجلبة للأمن ومنقاة للخوف ، ولا يدرك ذلك إلا الذين أعطاهم الله فيض فضله لحظات ركنوا فيها إليه ، فلم يبالوا الدنيا مجتمعة عليهم ترمى إليهم بالوعيد والتهديد .

والصورة الثالثة من التي أسهم الأزهر بأوفى نصيب في الدعوة إليها ، وتقرير أصولها ، في المجتمع الإنساني ، هي تلك الصورة التي تهتف بالناس أن يحتقروا عصبية اللون والجنس ، فإن الإنسانية لم تتعرض لحنة بلاء عظيم في صورة من صور الحياة كما تعرضت لحنة التفاضل بالألوان والأجناس والعروق ، وقد كانت دعوة القرآن للناس أن يتفاضلوا — إذا كان لا بد لهم من التفاضل — بالأعمال التي تنفي على المجتمع الخير . وتيسر له أسباب الأمن والعيش في ظلال ظليلة من السكينة النفسية ، والحاجات المعيشية ، فذلك قول الله جل شأنه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣) » :

(١) سورة المائدة من الآية ٨ . (٢) سورة قريش . (٣) سورة الحجرات الآية ١٣ .

فلك خلاصة موجزة لرسالة الأزهر التي أداها للإنسانية تحت لواء الإسلام ، خادما له ،
وجندياً من جنوده ، وهي بغير شك رسالة جليلة خليقة أن ترفع من قدره في الشعب الذي يعيش
فيه ، وفي الأمة التي ينتسب إليها ، ومن هنا نراه قد ظفر بما لم يظفر به غيره من الجوامع والجامعات
من كريم التقدير وعظيم الإجلال في كل شعب وفي كل مكان . وقد جاء تطويره على يدي
الرئيس جمال عبد الناصر إلى جامعة تنتظم علوم الدنيا إلى جانب علوم الدين شيئاً جديلاً تتم به
النعمة على الناس ، وتتضاعف به الخدمة للدين .

قلت صدر هذا الحديث إنه لا بد من كلمتين يستعين بهما القارئ على الفهم والإفهام .
وإحدى الكلمتين عن الأزهر : « أزهر المعز » وثانيتهما عن جامعة الأزهر : « جامعة جمال
عبد الناصر » .

وقد انتهينا من الحديث عن « أزهر المعز » وبقيت الكلمة عن « جامعة جمال عبد الناصر » .

جامعة الأزهر

في أواخر شهر أكتوبر عام ١٩٦٥ أخذت الجامعة طريقها إلى مدينة نصر في أولى البنايات التي تم إكمالها .

وقد أراد ربنا بنا الخير ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل في طلائع جيل أزهرى جديد يتناول الدين بروح الدنيا والدنيا بروح الدين .

ولو كان لأرض أن تهش لوافدين عليها ، لكانت مدينة نصر بينة المشاشة ، بادية الهشاشة ، باستقبال جامعة الأزهر أساتذة وعاملين وطلبة ، وهى المدينة التي ظلت أرضها أعواما طويلا حرما آمنا للإنجليز ، ومراحا لجيوشهم الغازية ومغدى ، حتى لم يكن مصرى يجرؤ أن يتوطأ رمالها ، أو ينشق نسائها ، أو يستدفئ بشمسها ، إلا إذا كان خادما حرفة ، أو خادما دار .

واليوم وجامعة الأزهر تؤم المدينة لتعمرها بالعلم ، وتزينها بالحكمة ، وتشارك في تطهيرها من دنس الاستعمار ؛ لا يسعنا إلا أن نتوجه إلى الله تعالى بجميل الحمد ؛ على ما أسبغ من نعم وأجزل من عطاء . . . ثم إلى الرئيس جمال عبد الناصر ؛ نسأل الله تعالى له ؛ وقد أعطاه شرف الدنيا وفخرها ؛ أن يدخر له ثواب الآخرة وأجرها إن شاء الله .

ثم إن كلمة « التطوير » وهى الكلمة التي لا تذكر الجامعة إلا مقترنة بها ومشيرة إليها ؛ هى كلمة تحمل معنيين

أحدهما - جعل الشيء في طور لم يكن فيه .

وثانيهما - جعل الشيء في طور كان فيه ثم انفصل عنه ، ويراد له أن يعود إليه مرة أخرى .
فإلى أى المعنيين ينسب تطوير الأزهر ، ليصبح جامعة الأزهر ؟ وهل تعلم الطب والهندسة وما يتصل بهما من علوم الحضارة وفنونها ، طور جديد يراد للأزهر أن يصير إليه ، أو هو طور كان له ثم انفصل عنه ويراد له أن يعود إليه مرة أخرى ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضى التسليم بأمرين لا يرى الفاقهون مناصا من التسليم بهما :
أحدهما - أن الإسلام حضارة متكاملة ، وليس ديننا بالمعنى الضيق والمفهوم الدخيل للكلمة « دين » وربما صلح للدلالة على هذا المعنى قول الله تعالى :

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) »

ففي هاتين الآيتين تتلاقى غايات ثلاث أرادتها العناية الإلهية من بعثة محمد رسول الله إلى الناس ، من عاصره منهم ، ومن يجئ من بعدهم إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها .
الغاية الأولى : تلاوة آيات الله البينات ، وهي تدل على الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، مقرونة إلى ما لا بد منه في الدعوات من البشارة والإنذار في كتب الله وعلى لسان رسله جميعاً عليهم السلام .

والغاية الثانية : دعوة الناس إلى محاسن الأخلاق ، لإرادة تزكيتهم ، وإعدادهم إعداداً يستبين به خيرهم ويزيد فضلهم ، والزكاة في اللغة زيادة الخير والفضل .
والغاية الثالثة : تعليم الناس الكتاب والحكمة ، والمراد بالكتاب في هذه الآية القرآن الكريم كما يقول المفسرون .

ولا بأس من أن يكون المراد من الكتاب الكتابة ، من حيث كانت الكتابة طريقاً إلى حفظ المعارف من الضياع ، وإلى قيود العلوم من التفلت ، وربما أعان على هذا المراد ملاحظة أمرين :

أولهما : اللغة ، فإن العرب تقول : كتب الشيء يكتبه ، كتباً ، وكتابة ، وكتبته بمعنى خطه .

وثانيهما : أن الرسول ﷺ أمر بكتابة القرآن ، فكتب على العصب والخاف . . . وأن أصحابه رضوا الله عنهم قد اقتدوا به في هذا حتى انتهى الأمر إلى كتابة المصحف الإمام المعروف بمصحف عثمان رحمه الله .

فالكتابة من هذا الجانب شيء عظيم ينبغي الاهتمام به والعناية بأمره والتوفر على تحصيله للأمة العربية التي هي بسبيل تبليغ الدعوة الإسلامية الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة إلى عباد الله في كل زمان ومكان .

والناظر إلى فداء الأسرى في بدر يرى مقدار عناية الإسلام والرسول عليه السلام بالكتابة ، فقد جعل عليه السلام فداء الأسير موقوفاً على واحد من ثلاثة أشياء : مال يقدمه إلى جماعة المسلمين

في المدينة ، أو عفو يتفضل به رسول الإسلام لناظرأ إلى مصلحة الأمة ، أو تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة يقوم عليه الأسير لينال بعد ذلك تمام حريته .
ولاذن فمن الميسور أن يكون معنى الكتاب في هذه الآية القرآن الكريم وأن يكون معناها الكتابة وهذا عن طريق عموم المجاز .

فأما الحكمة فهى في عرف العرب معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، ولا بد هنا من ملاحظة نظم الكتابة مع الحكمة في فعل التعليم ، وكأنه يشير إلى أن الكتاب والحكمة إلفان لا يفرقان .
هذا : والأمر الثانى الذى يجب التسليم به إلى جانب أن الإسلام حضارة متكاملة ، هو أن الأزهر لا يراد به ذلك البناء الذى وضع أساسه الفاطميون مع مدينة القاهرة ، وإنما الأزهر رسالة ديدلية علمية إسلامية ، تلقاها الجامع الأزهر عن شيخ الجوامع في أفريقيا وهو جامع عمرو ابن العاص رحمه الله ، وقد تاقى جامع عمرو وأشقائه ، وأولاده ، وأحفاده في مختلف أقطار الدنيا ، وشتى جوانب الأرض ، تلكم الرسالة الديدلية العلمية الإسلامية عن المسجد الحرام أول بيت للناس في مكة وضعه الله في الأرض أمنا ورحمة وهدى للعالمين ، وصلى عنه محمد رسول الله يحمل إلى الإنسانية في كل زمان ومكان الإسلام الذى هو جماع الديانات السماوية وروح الرحمة الإلهية للعالمين .

وقد قامت الأمة العربية بنشر الرسالة الإسلامية عن طريق الجوامع والمدارس التى اشتقت منها ونشأت عنها ، فأيقظت الغافى ، وأبتهت الغافل : وعلمت الجاهل ، وإذا العلوم والفنون والآداب الإسلامية قضى معالم الطريق لحضارة رفيعة تتقيا في ظل الله أخوة عالمية في غير تعصب مقيت ولا تزميت مميت ، ولا تشاغل بالعرض عن الجوهر ، وإذا الإسلام بمعناه الحضارى الفسيح مهوى الأفئدة وموضع التجلة ، وإذا العرب في الشرق والغرب أساتذة « في الهندسة والطب والموسيقى والصناعة والاختراع ، لا نزع ذلك لأمتنا عصبية باطلة ، ولكننا نذكره حقائق ثابتة تجرى بها أقلام غير العرب وغير المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ولا تجهلها شعوب في مشارق الأرض ومغاربها كما تجهلها شعوب العرب وشعوب المسلمين .

ولأنه ليسعدنى - وأنا ألقى هذا الدرس على أبناء جامعة الأزهر ، أن أستصحب العلامة الفرنسى الأستاذ جوستاف لوبون صاحب كتاب « حضارة العرب » والأستاذة المفضلة « سيغريد هونكة » صاحبة كتاب « همس العرب » ، تسطع على الغرب أو « الحضارة العربية في أوروبا » ، وآخرين من الغرب والشرق ؛ وإنما أستصحبهم لأنهم يعرفون عن أمتنا العربية الإسلامية مالا نعرف ، ولأنهم يسبقون عليها من ألوان المجد ما لا نسبغ وما لا نستطيع أن نسبغ ، وبعد ذلك تعرفون أن تطور الأزهر إلى جامعة معناه أن علوم الحضارة كانت طوراً من أطوار أمتنا العربية الإسلامية ، وأن علوم الحضارة بكل جوانبها كانت طوراً من أطوار الأزهر ، بوصفه رسالة دينية علمية إسلامية ،

ثم حبل بينه وبينها ، واليوم يراد أن يرد الأزهر إلى حقيقته وإلى رسالته ، كما يرد الشيء إلى أصله والأليف إلى أليفه .

١ - أمتنا والجغرافيا :

إن السياحة أول الطريق إلى معرفة الجغرافية معرفة راسخة ، والسياحة بمعنى الضرب في الأرض للتدبر والعبرة ، صفة مدح القرآن بها المؤمنين ، فذلك حيث يقول الله تعالى في سورة التوبة وصفاً للمؤمنين : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » . وحيث يقول الله تعالى في سورة التحريم وصفاً للمؤمنات : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكار » .

وأخذاً بهذا المعنى القرآني الجليل رأينا الرحالة المسلمين يسيحون في الأرض ، ويضعون لرحلاتهم كتباً تعتبر لبنات أولى لعلم الجغرافيا .

وأول هؤلاء السائحين رجل عربي مسلم يدعى سليمان ، ساح حتى بلغ الصين ، وكتب رحلته في سنة ٨٥١ ، وأضأت إليها معارف أخذها عن عرب زاروا بلاد الصين ، وقد نقل هذا الكتاب إلى الفرنسية ، وهو أول مؤلف نشر في بلاد الغرب عن الصين ، ولا بأس أن أذكر أنني حين كنت في الصين عام ١٩٥٥ م ، زرت مسجداً في مدينة « كانتون » وكان المسجد يسمى « مسجد الشوق إلى النبي » وقد أخبرني رفيقي الصيني أن الذين أسسوا هذا المسجد جماعة من مسلمي القرن الأول زاروا الصين وتعسر عليهم الرجوع إلى مسجد المدينة ، فأقاموا في كانتون وأسسوا هذا المسجد وأسماه : « مسجد الشوق إلى النبي » .

والشريف الإدريسي أشهر الجغرافيين العرب ، لا يجحد المنصفون فضله ، ومن كتبه التي ترجمت إلى اللاتينية تعلمت أوربا علم الجغرافيا في القرون الوسطى ، وقد وضع الإدريسي خرائط عدة ظلت مدداً لمعارف أوروبا الجغرافية مدة ثلاثة قرون ، وكان الإدريسي من علماء القرن الثاني عشر الميلادي ، وكتابه الذي ألفه في آخر ذلك القرن مشتمل على منابع النيل والبحيرات الاستوائية ، وهو يسمى : البحيرة بطيخة ، فذلك حيث يقول عن منابع النيل : « إن هذا النيل يخرج من جبل القمر الذي هو فوق خط الاستواء بست عشرة درجة ، وهو يخرج من عشرة عيون ، فأما خمسة أنهار منها فلأنها تصب وتجتمع في بطيخة كبيرة ، وخمسة أنهار أخرى تنزل أيضاً من الجبل إلى بطيخة أخرى كبيرة ، ويخرج من كل واحدة من البطيختين ثلاثة أنهار فتتم بأجمعها إلى أن تصب في بطيخة كبيرة جداً ، وعلى هذه البطيخة مدينة تسمى « طرمي » .

والذي يقرأ منا هذا الكلام اليوم يبتدر ذهنه أن هذه البطيحات الثلاث ليست إلا البحيرات

الثلاث « فيكتورها ليازا » و « البرت » ، وادوارد « وأن الإدريسي قد جحدته الاستعمار أشد الجحود ، وأن التدليس في كثير من الأحيان طبيعة في بعض الأوروبيين »

وربما كان من أبشع صور الجحود انتساب أمريكا في الكشف عنها إلى غير العرب ، وقد تذكر أن عالماً صينياً منذ خمسة أعوام أخرج كتاباً للناس أوضح فيه بالأدلة القوية أن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا ، وأنها مدينة في الكشف عنها للملاحين العرب وليس لكروستوف كولومبس ، وإذا كان هذا الأوروبي قد ظفر بمجد هذا الكشف ، ولمع به ذكره في الآفاق ؛ واقرن به اسمه على الألسن . فإنك غير واجد لذلك تعليلاً إلا في الحكمة العربية التي تقول : « إذا أقبلت الدنيا على رجل كسسته محاسن غيره ، وإذا أدبرت الدنيا عن رجل سلبتة محاسن نفسه »

وهنا يجمل بنا أن ندع إجمال هذا الموضوع إلى الأستاذ العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) العالم الفرنسي المُنصف وإنه ليقول : « العرب هم الذين انتهوا إلى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عدت أول أساس للخرائط ، فصححوا أغاليط اليونان العظيمة في المواضع : : : والعرب هم الذين نشروا رحلات عن بقاع في العالم كان يشك الأوروبيون في وجودها بله أن يصلوا إليها . . . والعرب هم الذين وضعوا في الأدب الجغرافي كتباً اقتصرت أمم الغرب على استئساخها قرونًا كثيرة

٢ - العرب والفلك :

جاء الإسلام والعرب في الجزيرة العربية معلقة حياته بأسباب السماء ، فهو في ليله ونهاره متطلع الى السماء يتبين حوامل السحب ؛ ويهتدى بأضواء النجوم ؛ وهو من طول ما تأمل وربط المسبب بالسبب لا يفتأ يقول ذاهلاً عن حقيقة الإسلام أو جاهلاً : (مطرنا بالنوء) حتى يقول رسول الله صلوات الله عليه منبهاً من ذهول أو معلماً من جهالة : (من قال سقينا بالنجم فقد آمن بالنجم وكفر بالله ؛ ومن قال سقانا الله فقد آمن بالله وكفر بالنجم) ومع ذلك نرى عمر رضي الله عنه يجرى مع العرب ، تأولا النهى النبوي على اعتقاد تأثير النجوم في الأرزاق ، فقد استسقى بالمصلى ثم نادى العباس عم النبي يسأله كم بقي من نوء الثريا ؟ ، فيقول العباس : إن العلماء بها يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعة بعد وقوعها ؛ فوالله ما مضت تلك السبع حتى غيث الناس ؛ فاهتمام العرب بالسماء ، وغنى اللغة العربية بالكلمات الدالة على ظواهرها ونجومها وأفلاكها ومجربها من الظهور بحيث لا يحتاج إلى بيان .

وحينما جاء الإسلام ، رأى العرب في لسانه الصادق ، وهو القرآن ؛ دعوة ملحة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض ؛ من حيث كان هذا النظر طريقاً أى طريق إلى معرفة الله وإثبات عظمته وقدرته وحكمته وكمال علمه ؛ حتى إن المرء ليستبد به العجب وهو يقرأ القرآن فإذا فيه

مثل قوله جل وعز : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ^(١) » .

وموضع العجب في هذه الآية أن الشعب العربي على علمه الواسع بالنجوم كأنه لا يعلم عنها شيئاً ؛ ثم إن الصلاة والزكاة والحج والصوم ؛ وهي أركان الإسلام ، شديدة الحاجة إلى تبيان المواقيت حتى تقع على الوجه الذي طلبت به ، وأريد لها أن تقع عليه ؛

هذه الأسباب ، وبعضها متصل بطبيعة الحياة العربية ، وبعضها متصل بمطالب الدعوة الإسلامية ثم بأسباب آخر تتصل بالمعرفة والاستزادة من العلم ، أقبل العرب على كل ما يتصل بالسماء وأفلاكها ونجومها لإقبال تأمل ودراسة واختراع ، وانتفعوا انتفاع المجد الفاقة بما وصل إليهم بعد استقرار دولة الإسلام من علوم الهند واليونان وأهل بابل وقدامى المصريين ، وظلت مع ذلك شخصيتهم بارزة وطابعهم واضحاً في كل ما قدموه للبشرية في هذا المجال مما تكشف عنه الأيام ، ويعان به المنصفون من أهل العلم في مشارق الأرض ومغاربها .

ولن يحدد التاريخ أن خلفاء الإسلام وأمراء وعلماء قد اهتموا بأبلغ الاهتمام بإقامة المراصد في كثير من جوانب العالم الإسلامي ، فالأمون أقام مرصده في بغداد أو دمشق ، والعزير في القاهرة ، والحاكم أيضاً في القاهرة ، وعضد الدولة في حديقة قصره في بغداد ، والساجوق في نيسابور ، وهولاكو في مراغة ؛ ولن يحدد التاريخ عبقرية ناصر الدين الطوسي وزير هولاكو ، وقد أنفق من عمره ثلاثين عاماً في مراقبة السماء ، ومتابعة سير النجوم والأفلاك ، ولن ينسب التاريخ البيروني ، وكان مشيراً للسلطان الغزنوي في القرن الحادي عشر الميلادي ، ولا كتابه الموسوم : « تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض » فقد زار البيروني بلاد الهند وعلم من الهندوس ما انتهت إليه مدرسة بغداد ؛ ولن ينسب التاريخ أن السلطان الساجوق في سنة ١٠٧٩ الميلادية أمر بالقيام بأرصاد أسفرت عن إصلاح التقويم السنوي بما هو أفضل من التقويم الغريغوري الذي تم بعد ستائة سنة ؛ وذلك أن التقويم الغريغوري يؤدي إلى خطأ ثلاثة أيام في كل عشرة آلاف سنة ، مع أن التقويم العربي لا يؤدي إلا إلى خطأ يومين في مثل ذلك الزمن .

وهنا نترك أيضاً الدكتور جوستاف لوبون يقول : اليوم نعلم أن فلكي الصين ولا سيما « كوشو كنج » استنبطوا معارفهم الفلكية الأساسية من كتب علماء بغداد والقاهرة في علم الفلك ، ولذا نقول : إن العرب هم الذين نشروا علم الفلك في العالم كله بالحقيقة .

ربما خفى على أكثر الناس أن الأرقام الحسابية التي يستعملها الأوروبيون اليوم هي أرقام عربية ، أعطاهها المغرب للعربى أهل أوروبا منذ زمن بعيد ، فقد زارنى يوماً عالم فاضل ، ورأى فى مكتبى كتاباً مهداة إلى من أصدقاء لى فى المغرب الأقصى ، وعلى صفحاتها تلك الأرقام التي يستعملها الأوروبيون وما أشد ما بدا على وجهه التعجب ثم قال : ما أشد ما تأثر المغاربة بالاستعمار حتى أخذوا صور أرقامهم ؟ وقد تضاعف عجبى حين أخبرته أن هذه الأرقام عربية ، وأن أوروبا هي التي تأثرت بالعرب ، فأخذت عنهم هذه الأرقام ؟

ثم إن العرب لم يقف عطاؤهم عند صور الأرقام ، بل تجاوز ذلك إلى أسماء بعض الأعداد ، ومن ذلك كلمة « أربس » وكلمة « كوبماس » وكلمة « تمنياس » تعنى أربعة ، وخمسة ، وثمانية . فهذه كلمات عربية واضحة النسب إلى العربية ، وإن كان التحريف الذى أصيبت به يجيل إلى من يسمعها أنها كلمات أعجمية ، ومن هذا القبيل كلمة « صفر » وهى كلمة عربية تعنى فيما تعنى الخلو والفراغ ، كما فى الحديث الشريف : « صفرة فى سبيل الله خير من حمر النعم » يعنى الجوعة وخلو البطن من الطعام . والعرب يقولون : « يد صفر » و « لئاء صفر » بمعنى خال لا شيء فيه . وقد استعار العلماء العرب كلمة صفر للدائرة أو النقطة التي لا تدل بذاتها على شيء ، ثم أخذت أوروبا هذه الكلمة بمعناها ولفظها جميعها ، على ما لا بد منه فى اختلاف اللهجات ، فبعض الأوروبيين ينطقونها « زيرو » وبعضهم ينطقها « زيفرو » والفرنسيون ينطقونها « شفر » ومع كر الغداة ومر العشى ، كسبت الكلمة إلى جانب المعنى الحسابى معنى آخر يدور حول السرية ، أعنى ما يعرف الآن بكلمة « الشفرة » وما فتئ العرب يستعملونها بهذا المعنى السرى ، وهم لا يعرفون أنهم يستعملون كلمة عربية واضحة النسب إلى العروبة . ومن هذا القبيل كلمة « الجوريسمو » التي ترجمت إلى العربية « له غاريتم » بإبدال الجيم الأجمية غيناً ، كما هو شأن العرب الفصحاء فى جعل هذا الحرف غيناً دائماً فى كل ما يترجمون من اللغات الأجمية إلى اللغة العربية ، فكلمة « الجوريسموز » هذه كلمة عربية الأصل ولو كان قد استقام للمعنيين بالبحث عن أصول المفردات من متعصبة أهل أوروبا ، نقول لو استقام لهم أن يضعوا العرب فى اعتبارهم عند البحث ولا يغفلوا تأثير العرب فى الحضارة الأوروبية ، ما ظلوا حيارى قروناً طويلة حيال هذه الكلمة الجوريسمو لا يدرون كيف يردونها إلى لغتهم ولكن لهم أن يعرفوا بغير عناء أن الكلمة عربية ، وأز أصلها « الخوارزمى » كما رأى ذلك العالم الفرنسى « ريناند » عام ١٨٤٥ فقد قرر الرجل أن اسم الخوارزمى قائم قياً واضحاً فى لفظ « الجوريسموس » ويشهد لذلك أن الأعداد العربية التي وجدت طريقاً إلى أوروبا عن طريق كتاب الخوارزمى فى الحساب ، فقد كتب هذا العالم العربى الجغرافى الرياضى الفلكى عدة كتب ترجمها الإنجليز إلى اللاتينية بعد ثلاثة قرون من تأليفها ، ومن أشهر كتبه كتاب الجبر والمقابلة ، وقد ترجمته أوروبا بعنوان « الجبر »

وكتاب آخر صغير في الحساب الهندى شرح فيه الخوارزمى الأعداد والحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة وكسور وتبصيف وتضعيف ، وقد ترجم هذا الكتاب فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، ومنه نسخة فى دير سالم محفوظة تحت اسم « لىبر الخوارزمى » أى « كتاب الخوارزمى »

وهنا يطيب لنا أن نترك للسيدة المفضالة دكتورة « سيفريد هونكة » الألمانية ختام هذا البحث فهى تقول : « لقد غزت الأعداد العربية أوروبا وأخذت تؤدى دورها الهام فى العلوم الطبيعية والصناعات والاقتصاد وسائر وسائل الاتصال بين الشعوب الراقية فى العالم وفى مختلف العصور » .

٤ - العرب والفيزياء :

ما أشد الألم الذى يستبد بالنفس العربية وهو يستمع إلى الكتاب والمؤرخين وهم يذكرون فى حمرة بالغة ضياع كتب العرب المهمة فى الفيزياء ، والمرء لا يتصور الخسارة الإنسانية بضياع تلك الكتب إلا وهو يعصور فتنة التتار فى الشرق العربى ، وفتنة التعصب المسيحى الكاثولىكى فى المغرب العربى فيتضاعف الألم والخسارة فى نفسه ، وإن كان ذلك لا يغنى شيئاً عن الدم المهرق والعلم المضيع .

نعم لقد ضاعت كتب فى الفيزياء قيمة ، ولم يبق منها غير أسمائها فى كتب الفهارس ، وغير مقتطفات منها انطوت عليها كتب لم تدركها يد البلى . إن كتاب الحسن بن الهيثم فى البصريات هو مصدر معارف أوروبا فى هذا الباب كما يقول الأوروبيون أنفسهم ، والحسن بن الهيثم هو واضع أول نموذج لآلة التصوير ، وهو أول صانع نظارة للقراءة ، وقد توصل الحسن إلى معرفة ارتفاع الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض وأنها خمسة عشر ألف متر لا تزيد .

إن التاريخ مهما تحيز غير قادر على الغض من قدر ابن الهيثم ، ولا هو بقادر على الغض من مقدار فضله على أوروبا ، ولأنه لعاجز أيضاً عن الغض من قدر على بن سليمان القاهرى فى نظرية النيرة ، فقد وضع على بن سليمان هذا رسالة فى النيرة فى القرن العاشر الميلادى ، وفى هذه الرسالة يقرر إمكان تقسيم الجسم إلى جزئيات ، وأن هذا التقسيم لا ياتمى ، وأن الإنسان لا يصل إلى نتيجة من جسم غير قابل للتجزئة .

٥ - العرب والميكانيكا :

يقول الدكتور (جوستاف لوبون) معارف العرب الميكانيكية العملية واسعة جداً ، ويستدل على مهارتهم فى الميكانيكا من بقايا آلاتهم التى انتهت إلينا ومن وصفهم لها فى مؤلفاتهم ، ثم يقول : والذى لا ريب فيه هو أن العرب عرفوا الساعات ذات الأتقال التى تختلف كثيراً عن

الساعات المائية ، ودليلنا على ذلك ما وصفت به ساعة الجامع الأموى الشهيرة في كتب كثير من المؤلفين :

قال ابن جبير يصف هذه الساعة (وعن يمين الخارج من باب جبرون في جوار البلاط الذى أمامه ، غرفة لها هيئة طاق كبيرة مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيراً هندسياً فعند انقضاء ساعة من النهار ، تسقط صنجتان من صفر (نحاس) من فى بازين مصورين عدداً من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما ، أحدهما تحت أول باب من الأبواب والثاني تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقيتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة وتبصر البازين يمدان عنقيهما بالبندقيتين إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً ، وعند وقوع البندقيتين في الطاستين يسمع لهما دوى ، وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين باوح من الصفر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنغلق الأبواب كلها ، وتنقضى الساعات ، ثم تعود إلى حالها الأولى : ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعرض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، يزيد ذلك كله منهما خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على للدائرة أمامها شعاع فلاح للابصار دائرة حمرة ، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل ، وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتمالها ، يعيد فتح الأبواب ، وصرف الصنوج إلى مواضعها :

الامة العربية والكيمياء :

لا أذكر أننى عجت لشيء كما عجت وأعجب حين قرأت وحين أقرأ الكلمات التى كتبها بعض علماء الإسلام حول الكيمياء ، فقد قرأت للشيخ ابن نباته المصرى من أعيان القرن الثامن الهجرى قوله : (الكيمياء معروفة الاسم باطلعة المعنى) والعجب يتجلى فى الصورة إن أنت قرأت هذه الكلمة لابن نباتة ثم قرأت كلمات الفحول من علماء الغرب وهم يتفقون خاشعين حيال الجهود العربية التى بذلت فى سبيل الكيمياء ، وحيال الكشوف العربية التى مهدت للكيمياء سبيلاً لم يمهدها سوى العرب ، ولم يجهلها غير الأخلاف الذاهلين الذين جهلوا أجداد أسلافهم الأبقاظ من أبناء الأمة العربية :

يقول الأخلاف الذاهلون مثل هذا القول « الكيمياء معروفة الاسم باطلعة المعنى » ويقول العلماء الأثبات من أهل الغرب مائصه : « كيمياء العرب مشوبة بالسيمياء ، كما كان علم الفلك عندهم مشوباً بفن التنجيم ، ولكن مزج العلم بالخيال لم يمنع العرب من الوصول إلى اكتشافات مهمة » ثم يقول الدكتور « جوستاف » المعارف التى انتقلت من اليونان إلى العرب فى الكيمياء

ضعيفة ، ولم يكن لليونان علم بما اكتشفه العرب من المركبات المهمة مثل الكحول ، وزيت الزاج (الحامض الكبريتي) وماء الفضة (الحامض النثري) وماء الذهب . . . وما إلى ذلك . وقد اكتشف العرب أهم أسس الكيمياء مثل التقطير .

ويقول الدكتور جوستاف وسعته رحمة الله : « قال بعض المؤلفين ، إن لا فوزيه هو واضح علم الكيمياء ، وقد نسوا أننا لا نعرف علماً ابتدع دفعة واحدة ، وأنه قد وجد عند العرب من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافات لم يكن لا فوزيه ليستطيع أن ينتهي إلى اكتشافاته غيرها » .

هذا ويقول الأخلاف الذاهلون ما لصبه : « وأما جابر بن حيان الذي عنده سر الكيمياء فلا أعرف له ترجمة صحيحة في كتاب يعتمد عليه ، وهذا دليل على قول أكثر الناس أنه اسم موضوع وضعه المصنفون في هذا الفن ، وزعموا أنه كان في زمن جعفر الصادق ، وأنه إذا قال في كتبه « قال لي سيدي » و « سمعت من سيدي » فإنه يعني جعفرأ ، وذلك ما يقوله ابن نباتة .

ويقول الثقات من علماء الغرب : أقدم علماء الغرب في الكيمياء وأكثرهم شهرة هو جابر ابن حيان ، الذي عاش في أواخر القرن الثامن الميلادي ، والذي ألف كتباً كثيرة في الكيمياء ، وقد نقل عدد غير قليل من كتبه إلى اللغة اللاتينية ، وقد نقل كتابه « الاستقام » الذي هو من أهم كتبه إلى اللغة الفرنسية في سنة ١٦٧٢ م ، فدل هذا على دوام نفوذه العلمي في أوروبا مدة طويلة ، ويتألف من كتب جابر موسوعة علمية حاوية خلاصة ما وصل إليه علم كيمياء العرب في عصره ، وتشتمل هذه الكتب على وصف كثير من المركبات الكيماوية التي لم تذكر قبله ، كماء الفضة (الحامض النثري - النترات) وماء الذهب ، وهما الماءان اللذان لا يتصور علم الكيمياء بدونهما ، واشتملت كتب جابر على بيان كثير من المركبات الكيماوية التي كانت مجهولة قبله ، كالبنوتاس وملح النشادر ، ونترات الفضة ، والسليمانى ، والراسب الأحمر . وكان جابر أول من وصف في كتبه أعمالاً أساسية في الكيمياء كاللتقطير ، والتصعيد ، والتذويب والتحويل .

وقد ابتدع العرب في الصيدلة ، واستعلن نبوغهم في الكيمياء الصناعية ، فحذقوا فن الصياغة وتسقية المعادن ، وصنع الفولاذ ، ودباغة الجلود ، نعم ، واستخدموا البارود بصورة لم يسبقوا إليها ، ولئن كان الصينيون هم الذين اخترعوه ، لقد كان العرب هم الذين استخرجوا قوته الدافعة ، وزموا به خلف الأسوار القذائف المرعبة ، وفي المعركة الصليبية للحملة الخامسة استخدم القائد المصرى فخر الدين نيراناً عربية لم يكن لأهل أوروبا بها عهد ، فكانت تملاً قلوب الصليبيين رعباً وفرعاً ،

ولنستمع إلى ما يقول دكتور جوستاف في هذا الباب ، قال : « وليس بمجهول خبر العرب الذى ألقته الأسلحة العربية في قلوب الصليبيين فوررد ذكره في أحاديثهم ومن ذلك أن أعلن

جوانفيل أنها أفلح شيء رآه في حياته وأنها ضرب من التناير الكبيرة الطائرة في الهواء ، ولما أصبح « جوانفيل » في جوار الملك سان لويس إذا هو يركع ويقول باكية رافعاً يديه إلى السماء « أى ربنا يسوع ، احفظنا ، واحفظ قومنا » .

وفي كتاب « الحرب » لحسن الرماح يجد المرء ذكر كثير من المواد المفرقة والأسلحة النارية وهى : بيض يندفع تلقائياً ويحرق ، وهى تطير نافثة للهب ، وهى تحدث صوتاً مثل الرعد ، تقول الدكتورة سيغريد الألمانية بعد حديث ممتع فى هذا الموضوع « فالعرب هم أول من صنع لغماً تقذف الصواريخ »

وقد استخدم العرب أسلحتهم النارية وهم يدافعون عن مدينة الجزيرة التى هاجمها الأدفونس الحادى عشر سنة ١٣٤٢ ميلادية ، ويقول تاريخ الأدفونس هذا : إن مغاربة المدينة كانوا يقذفون كثيراً من الصواعق على الجيش فيرمون عليه عدة قنابل كبيرة من الحديد كالفتحاح الكبير « وذلك إلى مسافة بعيدة فيمر بعضهما من فوق الجيش ، ويسقط بعضها عليه » ، وقد حضر كونت « دربي » وكونت « سالبورى » حصار هذه المدينة ، وشاهدوا نتائج استخدام البارود ، ثم نقلا ذلك الاختراع إلى بلادهم ، واستخدمه الإنجليز بعد ذلك بأربع سنين :

أمتنا والطب :

لا يجهل المؤرخون ، أو لا ينبغي أن يجهلوا ، الطبيب الأندلسى الجليل خلف بن عباس الزهراوى ، صاحب المؤلفات الكثيرة ، التى من أهمها كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » وهو موسوعة طبية شاملة ، يتناول الجزء الثانى منه بحثاً فى الجراحة والكلى ، وقد ترجم إلى اللاتينية ، ونشر فى أوروبا ثلاث مرات : فى البندقية ، وفلورنسا ، واكسفورد . وظل مرجعاً لتدريس الطب فى الجامعات الأوروبية حتى القرن السابع عشر :

وكذلك لا يلغى للمؤرخين أن يجهلوا أن أوروبا لم تعرف البيوت المخصصة للمرضى قبل نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، بل بعد اتصالها بالشرق العربى حيث اقتبس المسيحيون نظم المشافى والملاجىء ، ومع ذلك ظلت أوروبا زمناً طويلاً تحارب الأطباء ، ولا تعينهم فى المشافى اعتقاداً من المسيحيين أن رسالة الكنيسة فيما يتعلق بالمرضى هى تخفيف الآلام وليس تحصيل الشفاء « ، بهذه الكلمات تصور الدكتورة سيغريد الألمانية حال أوروبا فى علاقتها بالطب ، ومدى نظرها إليه ، وعقيدتها فيه ، ثم تمضى الدكتورة فى حديثها وهى تقول : « ومن أحسن المستشفيات الأوروبية ذلك المستشفى المعروف باسم أوتيل ديه » فندق الله وهذا المستشفى كما تصفه المراجع التى وصلتنا كانت أرضه مرصوفة بالطوب المغطى بالقش ، وعليها يتزاحم المرضى من شبوخ وشباب ونساء وأطفال ، ومنهم ذو المرضى المعدي ، والمحموم الذى يهدى من ثقل الحمى ، والمرضى

بالسل ، والذي يتلوى من المغص ، والذي أصابه داء الحكاك فيده راثمتان غاديتان على جلده ،
تلسدان له الراحة من دائه الأليم ، هذا إلى كثرة الهوام والحشرات التي تعيث فساداً في المستشفى ،
وإلى الشكوى الصارخة من ألم العرى والجوع ، وإلى الرائحة الكريهة التي تتصاعد من جثث الموتى
وقد كالت تظل في أماكنها أياماً طويلاً . . . الخ » .

ذلك ما تقوله الأستاذة سيفريد ، وهي تنقله عن شاهد عيان رويه للتاريخ في المراجع التي
وقعت عليها الكاتبة الكبيرة ، وهنا يطيب لي أن أستنطق التاريخ الأوروبي نفسه عن مبلغ عناية
المساحين بالمشافي وحرصهم الشديد على نظافتها وتوفير الراحة والغذاء والكساء والشفاء لرائديها ،
والوافدين عليها .

وأول ما يلفت الدارسين من ذلك ، هو تخير مواقع المشافي ، فالطبيب المسلم العظيم أبو بكر
محمد بن زكريا الرازي حين أراد اختيار موضع المستشفى في بغداد أمر أن تعلق في كل ناحية من
نواحي البلد قطعة من اللحم ، و الناحية التي تأخر فيها فساد القطعة عن سائر أخواتها ، أمر
بإقامة المستشفى فيها .

وفي القاهرة حين أراد صلاح الدين أن يحول قصراً من القصور إلى مشفى ، اختاروا له القصر
الذي لا تكثر في قاعاته جموع النمل .

وفي دمشق المشفى الذي أقامه السلطان « نور الدين زنكي » وقد توافر لهذا المشفى من فائق
العناية ما لم يتوافر إلا للمشافي . عصرنا هذا من حسن الموقع ، وبالغ النظافة ، وجودة الغذاء ،
وآية الصدق على ما نقول قصة برويه المؤرخون ، خلاصتها : أن أميراً عظيماً غير عربي زار
مرة مشفى نور الدين هذا ، وفي أثناء زيارته أسالت لعبه رائحة دجاجة محمرة ، فقرر أن يتمارض ،
ولما فحصه طبيب المشفى لم يكتشف مرضاً ، بل اكتشف قرماً وشراً ، ثم حوله إلى قسم
الأمراض الباطنية ، ووصف له طعاماً يتناوله مرتين كل يوم ، وهو عبارة عن فطائر محشوة
بالعسل وقلوب الدجاج ، وإلى جانب ذلك دجاج سمين وحلوى كثيرة ، وبعد ثلاثة أيام ماتت
شبهة المريض المتمارض ، وساعت صحته ، ولما زاره الطبيب بعد ذلك كتب له هذه الكلمات :
« ثلاثة أيام كرماً عربياً ، وقد انتهت ، فتوكل في رعاية الله وحفظه والسلام عليكم » .

ولعل من الجدير بالمعرفة أن مشفى قلاوون القائم إلى الآن في منطقة سيدنا الحسين مدين بوجوده
لمشفى نور الدين زنكي في دمشق ، وذلك أن القائد المصري الشاب قلاوون عندما هاجمه المرض
قريباً من دمشق ، كان المشفى النورى في المدينة يرسل إليه في خيمته بالأدوية وما يحتاج إليه المريض
ولما عوفي ذهب لزيارة المشفى ، وما أن طافت به حتى نذر أن يقيم مشفى إن أمكنته عناية الله من
السلطان . فلما رقى إلى ما كان يتمنى أقام مشفاه العظيم فها يعرف اليوم بشارع النحاسين قريباً مما

لعرفه بيت القاضي وقد وقف السلطان قلاوون مشفاه هذا على الملك والملوك ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى . وجعل للمريض الذى يخرج منه معافى كسوة ، ولمن يموت فيه التجهيز والدفن ، ورتب فيه الحكماء ، والجراحين ، والكحالين ، والمجبرين ، ورتب الخدم للمرضى ، ولم يقتصر بر هذا المشفى على المرضى النازلين به بل رتب لمن يحج إليه وهو فى منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية .

ولم يقتصر إنشاء المشافى والمصاح على الملوك المسلمين وحكامهم ووزرائهم بل تجاوز ذلك إلى الأطباء وأهل الفنى ، فأقاموا المشافى للعلاج والاستعجام ، وكانت هذه المشافى تبدل للمرضى بعد مغادرتهم المشفى كسوتهم ونفقة شهر حتى لا يزالوا العمل وهم فى طور النقاهة ، وقد استن المسلمون فى مشافهم التى أقاموها سنة لم تتنبه لها إلى اليوم دولة راقية لكى تضعها فى باب من أبواب العلاج ، وهى على ما بروى الأمير شبيب أرسلان : وظيفة من جملة وظائف معالجة المرضى فى المشافى ، أنشأها المسلمون ، ورتبوا لها جملاً معلوماً ، وهى توظيف اثنين كل عملهما أن يقفا بمسمع من المريض ودون أن يراها ، ثم يسأل أحدهما صاحبه عن علة المريض ، فيجيبه رفيقه بأنه لا يوجد فى علمته ما يشغل البال ، وبأن الطبيب قد رتب له دواء ناجحاً ، وأن المريض إذا تناول هذا الدواء فى مواعيده تماثل للشفاء فى وقت محدود . وهكذا يمضى بينهما الحديث ، والمريض يسمع ، فإذا الطمأنينة ملء جوانحه ، وإذا الأمل فى الشفاء بين يديه .

هذه كلمات قليلة حول الجانب النظرى فى المشافى العربية ، فإذا جئنا إلى الجانب الفنى أو العملى رأينا هناك العجب العاجب ، فقد كان طلاب الطب ، كما يقرر ذلك ابن أبى أصيبعة فى طبقاته - يرافقون أستاذهم عند زيارته للمريض ويدرسون معه مختلف حالات المرض ويستمعون إلى الحوار الدائر بينه وبين كبير الأطباء ، وكان يعقد اطلاب الطب امتحان يحصل الناجح فيه على إجازة تبيح له مزاوله المهنة ، وهى تنص بعد الهسمة على منح الطالب حق ممارسة مادة تخصصه حتى شفاء المريض ، كما تعطيه الحق فى فصد العرق ، وإزالة البواسير ، وخلق الأسنان ، وخياطة الجروح ، وختان الوضع ، وفى الوقت نفسه تحتم عليه استشارة رؤسائه ومعلميه من ذوى الخبرة .

والمؤرخون لا يجهلون أن تشريعاً صدر فى العام الميلادى ٩٣١ يقضى بإجراء امتحان لسائر الأطباء الذين يزاولون مهنة الطب خارج مستشفيات الدولة فى بغداد ، وكانوا نحو تسعمائة طبيب ، وكان سبب هذا التشريع أن طبيباً بغدادياً قتل جهله بفنه أحد مرضاه .

والأدباء لا يسعهم أن يجهلوا الأبيات التى مدح بها الطبيب الجليل ابن قرة مدحه أحد شعراء سيف الدولة وفيها يقول :

ما للعليل سوى ابن قرّة شاف بعد الإله وهل له من كافى
مثلت له قارورتي فرأى بها ما اكن بين جوانحي وشغافى
يبدو له الداء الخفى كما بدا للعين رضرارض العدير الصافى

غير أن الأدباء حين يروون هذا الشعر أو يروى لهم لا يلفتهم إليه أكبر من أنه حسن الصوغ
صحيح العبارة شأن العرب دائماً في تناولهم القضايا الأدبية في تراثنا الجليل ، بيد أن كلمة (قارورة)
وما تدل عليه في مجالات أعمق مغزى وأبين نفعا هي الخليفة بالرعاية والتدبير في هذه الأبيات ،
فإنها تدل على أن الأطباء العرب منذ زمن طويل قد استخدموا القارورة لتشخيص الأمراض على
نحو ما يسلكه الطب في عصرنا الحديث في التحليل .

هذا ، وما أشك في أن القارئ وقد صحبناه في هذه الرحلة الطويلة بعد أن يفرغ منها ويعود
إلى ما بدأنا به هذا الدرس سوف يتبين له أن تطوير الجامع الأزهر إلى جامعة الأزهر ليس أمراً
تابياً عن الرسالة الأصيلة ولكنه أمر في صميم الإسلام وقد أسهم فيه المسلمون بأوفر
نصيب وأوفاه .

ومن أجل هذا كآل ينبغي للمسلمين أن يتلقوا تطوير الجامع الأزهر إلى جامعة الأزهر بكثير
من الهشاشة والبشاشة بدل أن يتلقوه بالنقد حيناً والإشفاق من النتائج حيناً آخر .

وإني لأعتقد أن الذين فكروا في تطوير الأزهر وأسهموا فيه بنصيب لمكى يبلغ غايته في
بناء النفوس والأرواح إلى جانب بناء الأجساد والعناية بها — لاشك في أن الله تعالى سيتولى حسن
جزائهم وسيعرف لهم في العاجل والآجل هذه الأيادي البيضاء التي قدموها لأمتنا العربية
الإسلامية في مختلف أوقافها .

وقبل أن نختم هذا البحث لا يفوتنا أن نكرر مرة أخرى باسم الأزهر أصدق الشكر وأعظم
الولاء إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر تأدياً بأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي
يقول : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

وفي الحديث القدسي أيضاً : (يا عبادى لم تشكرنى إذا لم تشكر من أجرى لك الخبير
على يديه) .

• ولئن كان سوء الحظ قد صحب تطوير الأزهر إلى جامعة فعطل التدريس في الجامع الأزهر
اكثفاء بالتدريس في كليات الجامعة ، لقد كان ذلك إلى أمد محدود - فلم تلبث الدراسة
أن تعود في حلقاتها التقليدية المألوفة المعروفة مرة أخرى ، وأن يكتمل بهذا النظام الذى
يشمل الجامع الأزهر وجامعة الأزهر •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين
وعلى سائر لمخواله من النبيين والمرسلين •

أهداف الرسالة الإسلامية

وبيان دورها في نشرها
لفضيلة الأستاذ الرصوم الشيخ كامل محمد حسن
وكيلة كلية اللغة العربية
بالمؤثر هريافا

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

الحمد لله الذي غصم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم واصطفاه ، وبالخلق الكريم
توجه وحلأه ، ثم مدحه أعلى شهادة سماوية إلهية حين خاطبه بقوله جل شأنه
« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »^(١)

اختصه وبه بالرسالة العامة الشاملة ، فكانت مسئوليته يعوم رسالته أوسع أفقا ،
وأعظم نفعا و « الله أعلم حيث يجعل رسالته »^(٢)

خاطبه ربه بقوله عز وجل . « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ »^(٣)

فكان نبي الرحمة المهداة الذي سلك بالعباد طريق الوصول إلى الله ، صلوات الله
وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن تمسك بسنته وهديه

« أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »^(٤)

« أمّا بعد » فقد طُلب إلى أن أسهم مع أصحاب الفضل والفضيلة ، في تكويس
بحث ديني إسلامي يُنشر ضمن سلسلة البحوث الإسلامية التي يقوم بنشرها على العالم

(١) سورة الفلم آية - ٤

(٢) سورة الأنعام - آية ١٢٤

(٣) سورة الأنبياء آية - ١٠٧

(٤) سورة البقرة آية - ٥

الإسلامي مجمعُ البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ؛ فسعدتُ بهذا التكليف ، وأنشرح صدرى لهذا التشريف ، وسألتُ الله تعالى التوفيق إلى اختيار بحثٍ يتصل بصميم الدعوة المحمدية ، يكون فيه نفع العامة ، وتذكير الخاصة « فإن الذكرى تنفع المؤمنين » وقد رأيتُ أن يكون عنوانُ هذا البحث ما يأتي :

« أهداف الرسالة الإسلامية »

« وبيان الصلة بين رسالة الأزهر ، ورسالة نبي الإسلام » .

والله تعالى أسألُ أن يوفقني ، وأن يمنح أحسن الجزاء والثواب للسادة الثائمين بتنظيم هذه البحوث ونشرها ، حتى يتحقق النفع بها .

وإن في نشرها معالم الدين حفاظاً على الرسالة الإسلامية ، ومواصلةً للجهاد النبوي المحمدي ، وإن لنا في رسول الله أسوة حسنة ، ومن كان برسول الله مقتدياً ، ورث عنه صديق الإيمان ، وصالح الأعمال ، ومكارم الأخلاق .

« وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(١) »

قُبيل البَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

قُبيل بعْثَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّد بن عبد الله بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَعَبَّدُ فِي غَارِ حِرَاءٍ بِمَقْتَضَى الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ الصَّادِقَةِ فِي ظِلِّ الإِلَهَامِ الإِلَهِيِّ ، وَالْحَصَانَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بَعِيداً عَمَّا تَلَوَّثَ بِهِ قَوْمُهُ مِنَ الشَّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ، بَلْ حَفِظَهُ اللَّهُ مِنَ الْإِشْرَاقِ فِي عَادَاتِهِمُ الَّتِي يَرْتَفِعُ عَنْهَا مَقَامُ النَّبُوءَةِ ، كَمَا رَوَى عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ تَطَلَّعَ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَخْضُرَ بَعْضُ مَجَالِسِ قَوْمِهِ الَّتِي يَجْتَمِعُونَ فِيهَا لِلتَّنْصِيلِ فِي أَفْرَاحِهِمْ بِسَمَاعِ بَعْضِ الْأَلَاتِ الَّتِي يَلْهَوْنَ بِهَا فَمَا لَقِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّوْمَ حَتَّى قَاتَ وَقْتُهَا وَلَمْ يَتِمَّ لَهُ الْإِشْرَاقُ مَعَهُمْ فِي تِلْكَ الْعَادَاتِ - وَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ مُنْقَطِعاً لِلتَّعَبُّدِ فِي غَارِ حِرَاءٍ يَسْتَلْهِمُ الرُّشْدَ وَالْهُدَايَةَ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى جَاءَهُ الْوَحْيُ السَّمَاوِيُّ وَنَزَلَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى مَنْزِلَةِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ الَّتِي كَانَ يَتَعَبَّدُ بِهَا قُبيل الْوَحْيِ وَمَا كَانَ لَهَا مِنْ أَثَرٍ فِي التَّهْمِيدِ لِمَقَامِ النَّبُوءَةِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

« الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوءَةِ » .

وَوَجْهُ هَذِهِ التَّنْبِيْهِ الْعَدِيدِ أَنَّ سِتَّةَ الْأَشْهُرِ الَّتِي كَانَ يَتَعَبَّدُ فِيهَا بِالرُّؤْيَا يَسَاوِي نِصْفَ السَّنَةِ ، وَمُدَّةُ دَعْوَةِ النَّبُوءَةِ ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، وَهِيَ تَسَاوِي سِتَّةَ وَأَرْبَعِينَ نِصْفاً - وَبِذَلِكَ يَتَضَحُّ أَنَّ مُدَّةَ التَّعَبُّدِ بِالرُّؤْيَا تَسَاوِي جُزْءاً مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنْ مُدَّةِ النَّبُوءَةِ .

بَدَأَ الْجِهَادَ النَّبَوِيَّ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى رَبِّهِ .

ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سَنَةً قَضَاهَا نَبِيُّ الْإِسْلَامِ فِي جِهَادٍ وَجَلَادٍ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى رَبِّهِ ، مَعَ التَّنْذَرِ بِالْحِكْمَةِ وَالصَّبْرِ وَقُوَّةِ الْعَزِيمَةِ وَاحْتِمَالِ الْأَذَى وَقَدْ بَدَأَ هَذَا الْجِهَادَ مِنْ يَوْمِ أَنْ وَجَّهَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْخُطَابَ بِقَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ : « يَا أَيُّهَا الْمَدَّثَرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبُّكَ فَكَبَّرَ ، وَثِيَابُكَ فَطَهَّرَ ، وَالرُّجُزُ فَاهْجُرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْكَكِرُ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » (١) .

(١) سورة المدثر من الآية ١ - ٧ .

واقترضت الحكمة أن يبدأ الدَّعوة سِرًّا حتى لا تُصدم الدعوة في بدئها بمُعوقات الكفر ومُقاومات أهل الشرك تعصباً لِمَا ورثوه عن آبائهم من صفات الجاهلية الأولى التي تأصلت في نفوسهم ، ولا يمكن اقتلاعها ، واستئصالها من جذورها إلا بالتدريج وكان من ثمرات الدَّعوة سِرًّا أن استجاب لرسول الله عددٌ قليل شرح الله صدره للإسلام ، وما زال هذا العدد يزدادُ بمن أرادَ الله هدايته حتَّى ذاقُوا حلاوة الإيمان فكانَ أحدُهم يكرهُ أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يُقذف في النار .

وبعد أن مضى على الدعوة سِرًّا ثلاثُ سنوات ، كان المؤمنون قد زاد عددهم وزادَتْهمُ السِّحْنُ إيماناً بالله ورسوله ، وثقةً بِمَعُونَةِ الله عزَّ وجلَّ - فجاءَ الإذن لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمره الله بأن يَدع بالدعوة في قوله تعالى :

« فَمَاصَدِّعٌ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١) »

ومن هنا بدأ الجهاد النَّبَوِي الشَّاق فلم يزل يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة في رعاية وتوفيق من الله تعالى ومعه المؤمنون الصادقون الذين أخلصوا دينهم لله حتى بَلَغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الأمانة ، وأكمل الله لهم الدين ، وأتم عليهم نعمة الإسلام ثم امتن عليهم بقوله جلَّ شأنه :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (٢) » .

وبعد هذه المُقَدِّمَةُ التي أَجْمَلَت فيها ما كان قُبيل البعثة وما اتصل بها بَعْدُ البعثة ، أَتَوَجَّهُ إلى مَوْضُوعِ البَحْثِ فأقول

إنَّ مَنْ يَسْتَعْرِضُ سِيْرَةَ الرَّسُولِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه - وَيَتَلَمَّسُ مِنْ خِلَالِهَا أَهْدَافَ رِسَالَتِهِ التي بُعِثَ مِنْ أَجْلِهَا - وَقَدْ حَقَّقَهَا اللهُ

تعالى له بعد جهاد طويل ، أَمْكَنَهُ أَنْ يَحْصُرَ هَذِهِ الْأَهْدَافَ فِي أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ يَنْطَوِي فِيهَا كُلُّ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي وَمَا يَتَّصِلُ بِهِمَا مِنَ الصَّلَاحَاتِ الْبَاقِيَاتِ .

(أ) إِصْلَاحُ حَالِ الْعِبَادِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ .

(ب) إِصْلَاحُ حَالِ الْعَبْدِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ .

(ج) إِصْلَاحُ حَالِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ - وَوَاجِبُ كُلِّ فَرْدٍ نَحْوُ هَذَا الْمَجْتَمَعِ الَّذِي

يَعِيشُ فِيهِ .

تلك أهداف ثلاثة يرتبط بعضها ببعض ، وأولها يعتبر أساساً لِشَانِيهَا وَثَانِيهَا :

وسعادة العبد في دنياه وآخرته لا تتم إلا بتحقيق هذه الأهداف الثلاثة :

وإذا كان الإسلامُ دِينَ قُوَّةٍ وَعِزَّةٍ فَإِنَّ مَظْهَرَ هَذِهِ الْقُوَّةِ ، وَتِلْكَ الْعِزَّةَ مُتَّصِلٌ تَمَامُ الْإِتِّصَالِ بِقُوَّةِ الْمَجْتَمَعِ وَعِزَّتِهِ ، وَمَتَبَلِّغُ تَمَسُّكِهِ بِمَبَادِي دِينِهِ ، - وَمَبَادِي الدِّينِ الْأَصِيلَةِ الْمُنْقَوِّمَةِ لَهُ كَمَا كَمُلَ لَا تُقْبَلُ التَّهَاقُوتُ فِي بَعْضِهَا حَتَّى تَبْهَتَ لَهُ قُوَّتُهُ وَتُحْفَظَ لَهُ هَيْبَتُهُ ، وَإِلَّا كَانَ فِي جُمْلَتِهِ كَسَبَتْ حَصِينٌ انْتَهَدَمَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهِ ، وَيُشِيرُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي حَدِيثٍ « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ . . . » فَإِنَّ الْأَسْلُوبَ النَّبَوِيَّ فِي قَوْلِهِ : بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ « يُشِيرُ إِلَى أَنَّ أَرْكَانَهُ كَأَرْكَانِ الْبَيْتِ أَوْ الْخِيْمَةِ يُقَامُ عَلَيْهَا الْهَيْتُ أَوْ الْخِيْمَةُ - فَإِذَا هُدمَ رُكْنٌ مِنْهَا ذَهَبَ قُوَّتُهُ ، وَتَنَقَّصَتْ مَنَفَعَتُهُ وَيُشِيرُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » فَشَبَّهَ الدِّينَ الَّذِي نَعْتَصِمُ بِهِ بِالْحَبْلِ - وَالْحَبْلُ قُوَّتُهُ فِي قُوَّةِ طَيَّاتِهِ ، [فَمَا دَامَتْ طَيَّاتُهُ مُتَّامِسِكَةً كَانَ الْحَبْلُ قَوِيًّا يَعْتَصِمُ مِنْ تَمَسُّكِكَ بِهِ عِنْدَ الزَّلْزَلِ - فَإِذَا نَقِضَ الْحَبْلُ بِفِكَ طَيَّاتِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا ذَهَبَ قُوَّتُهُ فَيَكُونُ الْمُعْتَصِمُ بِهِ كَالْمُعْتَصِمِ بِخَيْطِ الْعَنْكَبُوتِ لِذَلِكَ يَجِبُ أَلَّا نَتَّهَاقُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَبَادِي الدِّينِ حَتَّى تَبْقَى قُوَّتُهُ وَعِزَّتُهُ « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » . مِنْ أَيْنَ يَبْدَأُ الْمُسْلِمُ عَمَلَهُ ؟

بِالْهَدَفِ الْأَوَّلِ - وَإِذَا أَرَادَ الْمُؤْمِنُ أَنْ يَعْرِفَ مِنْهُ أَيْنَ يَبْدَأُ الْعَمَلَ لِتَحْقِيقِ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَإِنَّ لَهُ بِرَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةً حَسَنَةً - فَقَدْ بَدَأَ رِسَالَتَهُ بِتَحْقِيقِ الْهَدَفِ الْأَوَّلِ وَهُوَ

إصلاح حال العباد أولاً فيما بينهم وبين خالقهم وذلك بتصحيح عقائدهم أولاً ليُسْطَهَرُوا قلوبهم من دنس الشرك وظلام الوثنية حتى يؤمنوا بالله ربهم ، وَيُصْذِرُوا أعمالهم على أساس الإيمان الصادق والتوحيد الخالص بحيث يَكُونُ لهذه العقيدة الإشراف الكامل على أعمالهم حتى تصادف التَمْسَّهَجَ النَّبَوِيَّ - فَإِنَّ رَقَابَةَ العقيدة التي تُصِلُ بين العبد وربّه أَوْسَعُ أَفْقاً من رَقَابَةِ التَّوَالِيَيْنِ الوُضْعِيَّةِ - فَإِنَّ الإنسان الذي يمتنع عن ارتكاب الجريمة خوفاً من رَقَابَةِ القوانين الوضعية فإنه قد يَفْأَيْتُ إلى ارتكاب الجريمة إذا أَمِنَ من يَطْلَعُ عليه من البشر وَيَشْهَدُ عَلَيْهِ - ولكن رَقَابَةَ العقيدة التي هي في ظل الرقابة الإلهية تمنعه من ارتكاب الجريمة في أى زمان وفي أى مكان لأن الله رَقِيبٌ عليه وعالم بما يجسُرُ بين جَنَبَيْهِ فيخْشَى رَبَّهُ أَيْنَمَا كَانَ ، وفي أى زمان كان . فأولُ شَيْءٍ عُنِيَ به نبي الإسلام في بَدْءِ دَعْوَتِهِ هو إصلاحُ القلوب وتطهيرها من رجس الشيطان ، فإن القلوب إذا أُخْلِصَتْ ، والنفوس إذا صَفَّتْ زالت عنها الحجب - فتَوَقَّعْ صِلَتَهَا بالله - وَصَلَحْ لِلْمَدَدِ الإلهي - والإلهام السَّمَاوِي - والإلهام : نور من نور الله ونورُ الله لا يَهْدِي لِعَاصِي :

وإذا كان العبدُ في حاجة إلى سَيِّدِهِ ومَوْلَاهُ ، فيجبُ أن يُصْلَحَ أولاً ما بينه وبين مولاه ، فإن الله لا يُعْطِي مدده ، ولا يمنح للعبد معونته إلا إذا خَشَعَ قَلْبُهُ ، وَتَفَاضَى في طَاعَةِ الله . ولهذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه - « أَلَا إِنَّ فِي النُّجَسِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ - أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » (١) :

فكُلُّ عَمَلٍ يَصْدُرُ من الإنسان ، وَلَا يَقُومُ على أُسَاسٍ من التقوى وصدق الإيمان فَهَوَ لَعَنُوهُ وَبَاطِلٌ وَلَكِنَّهُ أَلْبَسَهُ صَاحِبُهُ أَحْسَنَ صُورَةٍ مِنَ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ - وَكُلُّ قَوْلٍ يَصْدُرُ عن قلب لا يؤمن بالله فإن الله لا يَرْفَعُهُ إِلَيْهِ ، وَلَا يُشِيبُ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ مَهْمَا كَانَتْ صُورَتُهُ ، لِأَنَّهُ صَادِرٌ عَنْ عَقِيدَةٍ مَشْأُولَةٍ تَرَعَى في عملها وأقوالها جَنَائِبَ المَخْلُوقِ دُونَ الْخَالِقِ - وهذا هو السرُّ فيما جَاءَ به القرآن الكريم في شأن مَنْ كَفَرَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بالله ربّه ، يقول الله تعالى في شأن الكافرين « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَرَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً » (٢) :

ويقول كذلك في شأنهم « أعمالهم كرماد اشتدَّت به الريحُ في يوم عاصف (١) » ثم يقول :
« وقد مِنَّا إلى ما عمَلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْشُورًا (٢) » .

من هذا يتبيَّن أن الهدف الأول للرسالة الإسلامية هو إصلاح حال العباد فيما بيَّنتهم وبين ربهم ، وذلك بتطهير قلوبهم وتصحيح عقائدهم - ولهذا عُنِي الرسول في بدء دعوته بتوجيه الناس إلى النظر في الآيات والآفاق ، ليُعتبروا بما في ملكوت الأرض والسموات - وكان يأخذهم مرَّةً بطريق العبرة الواعظة ومرَّةً بطريق التَّيَصُّة المؤثرة : حتى خَلَّصَتْ عَقِيدَتُهُمْ ، وَصَقَّتْ نَفُوسَهُمْ ، فَتَجَسَّاتْ لَهُمُ الْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ فَأَمَنُوا بِاللَّهِ عَنْ بَيِّنَةٍ ، عن طريق الفهم والتفاهم ، وعن طريق الكسب والاختيار .

« لا إكراه في الدين ، قد تبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (٣) » .

ويقول الله تعالى لنبيه وكان شديد الحرص على إيمان الناس :

« أفأنت تُكذِّبُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٤) » .

ما عليك إلا البلاغ ، والله يهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

ومن هذه النُّصُوصِ القرآنية يَتَبَيَّنُ لأهل الْحَقِّ كَذِبُ أعداءِ الإسلام فيما زعموا أن الدِّينَ الإسلامي قام بالسَّيْفِ - ومن رجع إلى تاريخ الدعوة الإسلامية يَرَى أن السَّيْفَ لم يُؤْمَرْ به نبي الإسلام إلاَّ بَعْدَ أن مرَّ على الدعوة المحمدية ثلاث عشرة سنة وسبَّعة أشهر - لَمَّا تَجَمَّعَ أَهْلُ الشُّرْكِ والضَّلَالِ على مهاجمة الإسلام والمسلمين كُفْرًا وعنادًا بَعْدَ أن عَرَفُوا الْحَقَّ وَعَرَفُوا نَبِيَّ اللَّهِ مُحَمَّدًا كَمَا عَرَفُوا آبَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ ولم تفلح فيهم المِوَاعِظُ لِطَمَنَسٍ قُلُوبِهِمْ - وهنا جاء الأمر باستعمال السيفِ دِفَاعًا عَنْ حُوزَةِ الإسلام لا اعتداء على أحد .

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (٥) » .

ولم يشرع الجهاد بالسَّيْفِ إلاَّ بَعْدَ أن أُنْزِلَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

« أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا (٦) » .

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٢) سورة الفرقان آية ٢٣

(١) سورة إبراهيم آية ١٨

(٦) سورة الحج آية ٣٩

(٥) سورة الأنفال آية ٦١

(٤) سورة يونس آية ٩٩

وجاءَ أمر الله للمسلمين بالجهاد في قوله عز وجل :
« وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً (١) » .

وكان أول لواءٍ عُقِيدَ في الإسلام بعد أن قضى على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ثلاث عشرة سنة وسبعة أشهر - لم رسول الله سيدنا حمزة لواء أبيض للإشارة إلى أن الإسلام دين سليم وسلام لا يَطْلُبُ من الناس إلا إيماناً صادقاً وتوحيداً خالصاً يَكُونَانِ أساساً يَقُومُ عليهما صالح الأعمال : واستقامة الناس إلى الكبير المتعال - وهكذا كان جواب الرسول للرجل الذي جاء إليه يقول للنبي - عليه الصلاة والسلام - : قل لي يا رسول الله في الإسلام قولاً لا أَسْأَلُ عنه أَحَدًا غَيْرَكَ فقال له « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ » قول نبوي من جوامع الكلم - أشار فيه إلى أن الإيمان أولاً لأنه كالأساس لقبول الأعمال - فالإيمان أساس - والأعمال بعده لِإِنِّاءِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ - ولا يُعَوَّلُ على بناء بدون أساس - فلاخير في عمل يقوم على غير إيمان بالله تعالى - وإلى هنا تبين معنى الهدف الأول من أهداف الرسالة الإسلامية - وهو إصلاح حال العباد أولاً فيما بينهم وبين ربهم - وذلك بتحقيق الإيمان الصادق والتوحيد الخالص .

الهدف الثاني - إصلاح حال العبد فيما بينه وبين نفسه :

وإذ قد عَرَفَ المسلم من أين يبدأ عمله - وَعَرَفَ أن الأساس الذي تبنى عليه الأعمال هو إصلاحُ القلوب وتطهير النفوس - وَأَدْرَكَ أن القلوب المؤمنة - يَتَّبِعُ مِنْهَا نُورُ الْعَقْلِيَّةِ الإسلاميةِ الراجحة - وأن الشُّهُوسَ الصافية تَنْهَتْ فيها شَجَرَةُ الضمائر الإسلامية الواعية ، وأن القلوب التي عَمَّسَتْ بالإيمان ، تَقْرَمُ فيها الرقابة الدينية على كُلِّ عَمَلٍ من أعمال الإنسان ، فلا يصدر عنه قول ولا عمل إلا في ظل الخشية من الله . وبذلك ترتبط القلوب ، بعلام الغيوب ، الذي يعلم السِّر والنَجْوَى « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١) » إذا عَرَفَ المؤمن كُلَّ ذلك صَالَحَتْ نفسه واستعدَّت لتحقيق الِهْدَفِ الثاني من أهداف الرسالة الإسلامية وهو إصلاح حال العبد في خِصَاصَةِ نفسه ، وذلك لا يكون إلا إذا استقام واستجاب لله ورسوله فلا يخرج عن حدود الله ، فيما رسمته الشريعة الإسلامية وبَيَّنَّتْهُ السُّنَّةُ المحمديَّة -

ذاكرا في جميع أحواله قول الله تعالى : « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا (١) » .

فَيُخْلِصُ اللَّهُ فِي عِبَادَتِهِ ، وَيَصْدُقُ مَعَ النَّاسِ فِي مَعَامَلَاتِهِ - وَتِلْكَ مَرْتَبَةٌ تَأْتِي
بعد صدق الإيمان وقد أَوْضَحَتْ له الرسالةُ الإسلاميةُ مَعَالِمَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، كما جاء في قول
سيد المرسلين : « الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنَ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، قُنِ وَقَعٌ فِي الشُّبُهَاتِ
فَقَدْ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، وَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِزِّهِ (٢) » .

والمسلمُ كأنسانَ بَشَرٍ قَدْ تَمَدُّفَعُهُ نَفْسُهُ إِلَى أَنْ يَنْزِلَ بِارْتِكَابِ خَطَا شَرْعِيٍّ ، أَوْ يَفْرُطَ
فِي أَدَبٍ عُرْفِيٍّ فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَبَادِرَ بِالْعِلَاجِ ، وَيُسْرِعَ فِي الْخُرُوجِ مِنْ مَوَاطِنِ السَّيِّئَاتِ
إِلَى رِيَاضِ الْحَسَنَاتِ ، فَإِذَا تَابَ وَأَنَابَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ : « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ
عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٣) » .

أَلَا فَكَيْفَ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ أَنْ مِنَ الْإِحْسَانِ فِي عَمَلِهِ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ - وَذَلِكَ مَقَامُ
الْمُشَاهَدَةِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ لِنُزُولِ مَرْتَبَتِهِ عَنْ هَذَا الْمَقَامِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ وَبِرَاقِبِهِ - وَهَذِهِ
مَرْتَبَةُ الْمِرَاقِبَةِ : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ فِيهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِيَ لَهَا ، وَمَنْ رَبُّكَ
بِظُلَامٍ لَئِيْلٍ مُبِينٍ (٤) » .

وإذا كَانَ الْمَدْفُ الثَّانِي مِنْ أَهْدَافِ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَوْضُوعُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي
تَعُودُ فَائِدَتُهُ إِلَى الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ فِيهَا يَكْسِبُ مِنَ الصَّالِحَاتِ الْبَاقِيَاتِ ، فَإِنْ هَذَا يَقْتَضِي أَنْ
يَكُونَ عِلْمِيٌّ عِلْمِيًّا مِمَّا كَلَّمَتُهُ بِهِ الشَّرِيعَةُ حَتَّى يُمَيِّزَ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَبَيْنَ الطَّيِّبِ
وَالْحَبِيثِ - ثُمَّ لَا يَنْزَالُ يَرْقَى فِي دَرَجَاتِ الْعِلْمِ بِالشَّرِيعَةِ ، حَتَّى يَدْخُلَ فِي سَاحَةِ
الْحَقِيقَةِ - وَاللَّهُ يَمُنُّ عَلَى مَنْ شَاءَ وَتَخْتَلِفُ مَنَازِلُ النَّاسِ وَدَرَجَاتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَبَعًا لِمَا يَصِلُونَ
إِلَيْهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْمَنْتَحِ الْإِلَهِيَّةِ :

(١) سورة البقرة آية ٢٢٩ .

(٢) الحديث صحيح رواه الأربعة عن النعمان بن بشير ، وَلَفْظُهُ : « الْحَلَالُ بَيْنَ ، وَالْحَرَامِ بَيْنَ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ
مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ؛
كَرَاعٍ يَرعى حَوْلَ الْحِمَى يُوْشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَوْ إِنْ لَكَ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى وَإِنْ حَى اللَّهُ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، أَوْ إِنْ فِي
الْجَسَدِ مَضْغَةٌ إِذَا ضَلَحْتَ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَوْ أَوْهَى الْقَلْبُ » أ ه - وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي
الْأَوْسَطِ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَدِيثِ : « الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنَ ، فَدَعْ مَا يَرْبِيكَ إِلَى مَا لَا يَرْبِيكَ » أ ه - وَالحديث حسن .

(٤) سورة فصلت آية ٤٦ .

(٣) سورة الشورى آية ٢٥ .

« مَرَاتِبُ الْعِلْمِ فِي الْقُرْآنِ وَأَثَرُهَا فِي مَنِّ عِلْمٍ » :

لَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى مَرَاتِبِ الْعِلْمِ ، وَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ مَنَزَلَتُهَا - وَهِيَ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ .
١ - عِلْمُ الْيَقِينِ . ٢ - حَقُّ الْيَقِينِ . ٣ - عَيْنُ الْيَقِينِ - فَالْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَى وَالثَّالِثَةُ فِي
سُورَةِ : الْهَآكِمِ التَّكَثُّرِ « فِي قَوْلِهِ : « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (١) » :

وَفِي قَوْلِهِ : « لَتَرَوُنَّ عَيْنَ الْيَقِينِ (٢) » وَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ
« إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٣) » .

فَأُولَٰهَا وَأَدْنَاهَا مَنَزَلَةُ (عِلْمُ الْيَقِينِ) وَهُوَ الْعِلْمُ الْمَكْسُوبُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ طَرِيقِ الْخَوَاسِ
الْخَمْسَةِ - فَالْمَعْلُومُ الَّذِي تَتَقَنَّه عَنْ طَرِيقِ النَّظَرِ أَوِ السَّمْعِ أَوِ الذَّوْقِ أَوِ اللَّسَانِ أَوِ الْحَسِّ بِالْمُلُحَمَاتِ
أَوِ الشَّمِّ بِالْأَنْفِ يُقَالُ لَهُ « عِلْمُ الْيَقِينِ » - فَإِذَا رَأَيْتَ السَّمَاءَ بِنَظْرِكَ أَيقَنْتَ بِوُجُودِهَا - وَإِذَا
سَمِعْتَ شَخْصاً يَتَكَلَّمُ أَيقَنْتَ بِحَيَاتِهِ - وَإِذَا ذُفَّتْ مَشْرُوباً أَيقَنْتَ بِخَلَاوَتِهِ أَوْ مَرَارَتِهِ - وَإِذَا
لَبِستَ ثَوْباً أَحَسَسْتَ وَأَيَقَنْتَ بِنُعُومَتِهِ أَوْ خُسُوفَتِهِ وَإِذَا شَمِمْتَ شَيْئاً بِأَنْفِكَ أَيقَنْتَ
بِرَائِحَتِهِ سِوَاكَ أَكَانَتْ طَيِّبَةً أَمْ خَبِيثَةً .

فَكُلُّ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ مَكْسُوبَةٌ لَكَ عَنْ طَرِيقِ الْخَوَاسِ - وَبِمَا أَنَّ هَذِهِ الْخَوَاسِ مَمْنُوحَةٌ
مِنَ اللَّهِ لِكُلِّ مِنَ الطَّائِعِ وَالْعَاصِيِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ كَانَتْ أَقْلُ مَرَاتِبِ الْعِلْمِ لِأَنَّهَا مَشْتَرَكَةٌ بَيْنَ
الْمُسْلِمِ وَغَيْرِهِ فَالْعِلْمُ الْمَكْسُوبُ مِنْ طَرِيقِ الْخَوَاسِ لَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ صَاحِبِهِ عِنْدَ اللَّهِ فِي
الْمَنَزَلَةِ - فَإِذَا انْضَمَّ إِلَى مَرْتَبَةِ عِلْمِ الْيَقِينِ نَزُوعُ النَّفْسِ إِلَى الْجَنَابِ الْإِلَهِيِّ وَشُعُورُهَا بِحَقِّ
الْخَالِقِ عَلَيْهَا مِنْ إِيْمَانٍ صَادِقٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ وَتَطَوُّعٍ إِلَى رِضَا اللَّهِ تَعَالَى - فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَلْتَقِلُ
بِذَلِكَ إِلَى مَرْتَبَةِ حَقِّ الْيَقِينِ .

فَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ مَرْتَبَةُ حَقِّ الْيَقِينِ - وَلَا تَمْنَحُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ إِلَّا مَنْ آمَنَ حَقّاً وَعَمِلَ
صَالِحاً .

وَالْعِلْمُ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ عِلْمٌ مُوَهَّبٌ لَا مَكْسُوبٌ وَهُوَ الْمَشَارُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ
لَدُنَّا عِلْماً (٤) » - فَحَقُّ الْيَقِينِ هُوَ عِلْمٌ يَلْقِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فِي رَوْعٍ عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ إِلهَاماً لَهُ مِنْ

(٢) آية ٧ .

(٤) آية ٦٥ سورة الكهف .

(١) آية ٥ .

(٣) آية ٩٥ .

الله تعالى ليصادف به منهج الهدى والتقى من غير تعليم كسبي - وقد خسرَ جُؤا على هذه المرتبة ما وقع من سيدنا عمر رضى الله عنه حين صاح وهو على المنبر : يا سارية الجبل ألقى الله في روعي بطريق الإلهام ما كشف له عن حالة جيش المسلمين بقيادة سيدنا أسامة وأن العدو يتربص به من خلف الجبل فصاح منادياً أسامة وأسمع الله أسامة نداء الخليفة سيدنا عمر وكان ذلك سبب النصر لجيش المسلمين المجاهدين - كذلك خسرَ جُؤا على هذه المرتبة ما وقع لسيدنا سعيد الخراز فقد كان بالمسجد ووقع بصره على رجل زاهد فظن أنه متهدد وأنه يلبس الأتواب البانية ليعتقد الناس فيه أنه صالح - وكان هذا خاطراً بذنه فإذا الرجل الزاهد من الملمهين ، فالتفت إلى سيدنا سعيد الخراز وقال له : « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه (١) » .

فندم سيدنا سعيد على سوء ظنه بالرجل فتوجه إلى الله تعالى واستغفره مما مرَّ بطاخره - فلما استغفر ولاب التفت إليه الرجل الفقير الزاهد وقرأ قول الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢) » .

وهذه أمثلة لمن كان مؤمناً وارتقى من علم اليقين إلى حق اليقين فصار مسلماً وكان ميمناً قال الله فيهم « وعلّمناه من لدننا علماً » .

أما المرتبة الثالثة : وهي مرتبة عين اليقين - فلأنما تكون منحة من الله للأنبيا والصدّيقين :

وهي أعلى المراتب الثلاثة - وحاصل هذه المرتبة تنكشف له الأشياء على حقيقتها بنور البصيرة فيدرك عين الحقيقة بالمشاهدة دون حجاب - لأن بصيرته تكون كالصباح وجسمه يكون كالزجاج يرى الشيء من جميع الجهات دون حجاب بخلاف البصر فإنه يرى من ثلاث جهات فقط أمامه : وعن يمينه وعن شماله ولا يرى من خلفه - لأنه محجوب عن البصر - أما إدراك الحقيقة بالبصيرة فليس أمامه حجاب من أى الجهات - وقد خسرَ جُؤا على هذه المرتبة وهي عين اليقين - قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - للمصلين خلفه « أقيموا ركوعكم وسجودكم فاني أراكم من خلعتي كما أراكم من أمانى (٣) » - وقد خرج

(١) سورة البقرة آية ٢٣٥ .

(٢) سورة الشورى آية ٢٥ .

(٣) الحديث رواه الشيخان والإمام أحمد وأبو داود الطيالسي وغيرهم عن أنس رضى الله عنه ولفظه : أتموا الركوع

والسجود ، فوالله إنى لأراكم من وراء ظهري إذا ركعتم وإذا سجدتم وفى رواية إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم .

العلماء كذلك على هذه المرتبة ما قام به النبي - ﷺ - من وصف بيت المقدس وصفاً كاشفاً حينما أخبر الناس بحديث الإسراء ، وعارضته قريش وطلبوا منه إن كان صادقاً أن يصف لهم بيت المقدس وقالوا له في معارضتهم : أنضرب أكباد الإبل شهراً ذهاباً وشهراً إياباً حتى تعود - وتذهب أنت وتعود في لحظات - صف لنا بيت المقدس إن كنت صادقاً فأخذ يصفه لهم وصفاً دقيقاً كأن بيت المقدس أمامه - وقد انكشف له بنور البصيرة دون حجاب - فهذه المكاشفة تسمى « عين اليقين » :

وخرج العلماء كذلك على هذه المرتبة ما كان من سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حينما قال :
 لربّه : « رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي (١) » :

أى بلى آمنت يا رب حقّ اليقين ولكن أريد أن تنقلني إلى عين اليقين حتى أكشف الأمر وأشاهده عين اليقين - وفي تلك الأمثلة كفاية لتوضيح مراتب العلم الثلاث التي يسير على نهجها المسلم في المعرفة والترقى إلى منازلها :

قال العارف بالله الشيخ عبد العزيز الدبّاغ في كتابه (الذهب الأبريز) والفرق بين هذه المراتب كالفرق بين من علم بطريق القوافر وجود بلد اسمه مكة دون أن يراها فهذا العلم من قبيل علم اليقين - فإذا سافر هذا الشخص فعلاً إلى مكة وشاهد موقعها وبُليانها من بعيد وهو على مشارف الجبال فإنّ علمه بمكة يزداد عن الأول وهذا أشبه بحق اليقين فإذا دخل مكة وجاب شوارعها وشاهد جزئياتها عن بيّنة ووقف على راسمها الجغرافى حقيقة زاد يقينه بها وذلك ما يُسمى بعين اليقين والفرق حيثئذ ظاهر وهكذا يتفاوت المؤمنون في علمهم وبقينهم بالله عز وجل :

الهدف الثالث : (إصلاح حال المجتمع وواجب كل فرد نحو المجتمع الذى يعيش فيه) :

إصلاح المجتمعات هو المهمة الأولى المقصودة من إرسال جميع الأنبياء والمرسلين فكل نبي كانت مهمته وعنايته هى إصلاح حال المجتمع الذى أرسل إليه - يرسلونه

أولاً إلى حُسن الصلة بالله وتوثيق العلاقة بين العباد وربهم ، وذلك على أساس الصدق في الإيمان والإخلاص في التوحيد - وكُلُّ نبي يدعو أمته بدعوة واحدة في قضية واحدة هي قوله لهم : « أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا (١) » « اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (٢) » « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (٣) »

وتلك هي الأصول التي اتفق فيها جميع الأنبياء في كل عصر من عصور النبوات ويشير إلى ذلك المعنى قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - « الأنبياءُ أولادُ علاتٍ أمهاتهم شتى ودينهم واحد (٤) » وإذا عُنِيَ الإسلامُ بإصلاح المجتمع فذلك لأن قُوَّةَ الإسلام ومظهرَ عزِّته يرتبطان بقوة المجتمع الذي يعمسك بمبادئه ويستأصل عن شرفه وعزِّته فإذا تأرجح المجتمع بين القوة والضعف كان لذلك أثره في تمسك المسلمين بمبادئ دينهم أو الضرافهم عن أهداف الرسالة المحمَّدية .

ولهذا نضافر الكتاب والسنة على تشريع المبادئ القويمة والآداب الاجتماعية ، التي تُربِّي المجتمع تربية دليمة ، وقد امتلأ كتابُ الله ، وسُنَّةُ رسولِ الله بالحث على رعاية هذه المبادئ ، وتلك الآداب بين الأفراد والمجتمع حتَّى يَكُونُوا جَمِيعاً إخوة يَجْمَعُ شَمْلَتَهُمْ مُجْتَمَعٌ قَوِيٌّ عَزِيزٌ كَرِيمٌ يكون كالبنيان الواحد يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً - ويكون كالجسم الواحد إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالمعطر والحُمَّى .

وحرصاً على قوة المجتمع وبقائه سليماً من أسباب النزاع والضعف والوهن أرشد الكتاب والسنة إلى كثير من الآداب التي إذا روعيت بين الأفراد والجماعات تَحَصَّنَ الْمُجْتَمَعُ مِنْ أسباب الخلاف والنزاع ، وتَرَفَّعَ عَنْ سَرَيَانِ الْحِقْدِ وَالضَّغَائِنِ فِيهِ لَتَبْقَى الْحُبَّةُ بَيْنَهُمْ وَيَسْهُدَ الْوِفَاقُ وَالتَّعَاوُنُ فِي مَجْتَمَعِهِمْ . وهذا من أهم السبيل لإصلاح المجتمعات .

(١) سورة الشورى آية ١٣
الأعراف والآيات ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ من سورة هود .
(٢) الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة ولفظه فيه : « الأنبياء إخوة من علات وأمهم شتى ، ودينهم واحد » .
العات : هم الأخوة لأب من أمهات شتى .

فأول مبدأ وُضِعَ الإسلام لإصلاح المجتمع مبدأ الأخوة الدينيّة - فقد قال الله تعالى « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » وأخوة الدين أقوى من لُحْمَةِ النَّسَبِ - بل النَّسَبُ يَنْقَطِعُ بانقطاع السُّتَابَةِ فِي الدِّينِ كما انقطع نَسَبُ ابْنِ نُوحٍ عَنْ أَبِيهِ حِينَ بَدَتْ الْعَاطِفَةُ الْأَبَوِيَّةُ مِنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ « رَبِّ إِن ابْنِي مِنْ أَهْلِي (١) » فَأَجَابَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ

« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ (٢) »

وقد قال الله لِنَهْيِهِ نُوحٍ قَبْلَ ذَلِكَ « وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا لِأَنَّهُمْ مَغْرُقُونَ (٣) » .
لِللَّهِ اسْتَغْفَرَ نُوحٌ رَبَّهُ .

ومن المبادئ الدينيّة لإصلاح حال المجتمع تَشْرِيعُ التَّحِيَّةِ عِنْدَ الْمَقَابِلَةِ وَاللِّقَاءِ - يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ « وَإِذَا حَيَّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا (٤) » .
وَالْمُسْتَبَادَّةُ بِالتَّحِيَّاتِ تَرْبِطُ بَيْنَ الْقُلُوبِ بِالْوَدِّ الصَّادِقِ وَالْحُبِّ الْخَالِصِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ .

ومن المبادئ كذلك تعليم الأفراد وَحْشَتَهُمْ عَلَى الزِّيَارَةِ مَعَ رِعَايَةِ آدَابِهَا - يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا (٥) » .

ثُمَّ يَتَّبِعُ لِهَمْ عَوْرَاتِ الزِّيَارَةِ حَتَّى يَتَجَنَّبُوهَا حِفَظًا عَلَى بَقَاءِ الْمُوَدَّةِ بَيْنَهُمْ وَعَدَمِ الْخُرْجِ فِي الزِّيَارَةِ : « مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ - وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ - وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ »

وَمَحَلُّ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِذْنٌ وَمَوْعِدٌ سَابِقٌ فَإِنَّ ذَلِكَ يَنْفِي الضَّرَرَ كَذَلِكَ مِنَ الْآدَابِ الْجَمَاعِيَةِ ، النَّهْيُ عَنِ السِّمْحَرِيَّةِ وَاللَّمْزِ وَالتَّسَابُزِ بِالْأَلْقَابِ الْمَكْرُوهَةِ

(٢) سورة هود الآية ٤٦ .

(٤) سورة النساء ٨٦ .

(٦) سورة النور آية ٥٨ .

(١) سورة هود الآية ٤٥ .

(٣) سورة هود الآية ٣٧ .

(٥) سورة النور آية ٢٧ .

مع اجتناب الظنون السيئة - وترك الغيبة والنميمة - كما جاء في آيات من سورة الحجرات
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ - وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ^(١)» .

كذلك نهت الشريعة عن الهمز واللمز «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ^(٢)»

والهمز الطعن في أخيك من طريق الإشارة الخفية واللمز : الطعن فيه بالإشارة -
الظاهرة - وكلاهما ناشئ عن الاحتقار وذلك يتنافى مع الآداب والتربية الدينية للأفراد
والمجتمعات

كذلك نهت الشريعة عن القذف ورمى المحصنات : «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ
الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ^(٣)» .

ومن الآداب الدينية الاجتماعية رعاية حق الطريق والجلوس فيه - فلا يعترض المارة
بأذى وليغض بصره وسواء في ذلك الرجال و النساء - قال تعالى :

«قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى
لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ
وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ الْآيَاتِ ^(٤)»

ومن أمثال ذلك كثير من الآداب في كتاب الله وسنة رسول الله رعاية لإصلاح حال
المجتمعات التي جعلها الله مهمة لجميع الأنبياء والمرسلين .

(٢) سورة الهزاة آية ١

(١) سورة الحجرات الآيات ١١ ، ١٢

(٤) سورة النور الآيات ٣١ ، ٣٢

(٣) سورة النور آية ٢٣

ومن أهم الإرشادات الاجتماعية رعاية حقوق الجيران فإن حقوقهم تتصل بكمال الإيمان قال عليه الصلاة والسلام « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن - قيل مَن يا رسول الله؟ قال الذى لا يأمن جاره بواقته (١) » أى غَوَايَاهُ وشُرُورُهُ - والجيران (٢) ثلاثة كما جاء فى الحديث فجار له ثلاثة حقوق : حق الجوار وحق الإسلام وحق القرابة - وجار له حقان حق الجوار وحق الإسلام (إن لم يكن قريباً) وجار له حق واحد وهو حق الجوار فقط إذا كان كتابياً - ومن أهم الوصايا الدينية لتربية المجتمع والمحافظة على سلامته تحذير المسلمين من أثر السعاية والوشاية حتى لا يقعوا فى جرّمها وسوء عاقبتها - يقول مولانا جل شأنه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » .^(٣)

وقد طُلب إلى المسلمين أن يبادروا بإصلاح ذات البين قبل أن تَمَسَّ الفتنَةُ قلوبَهُمْ وتَجَرَّحَ وحدتهم فقال تعالى للمؤمنين : « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

كل هذا من طب القلوب وعلاج النفوس حتى يبقى المجتمع الإسلامى سليماً من المفساد قوياً يتّجمع القلوب ويتجنب العيوب - عزيزاً بوحده الشاملة ومحبة المخلصة وهنا ناحية مهمة تختم على الأفراد والمجتمعات توثيق الروابط حتى يقوم التعاون بينهم وثيقاً فإن ذلك التعاون يتوقف عليه نظام المعيشة والعمران - ومنشأ ذلك أن الله تعالى خَلَقَ الإنسانَ مَدَنِيّاً بطبعه لا يعيش وحده ، ولا يستطيع أن يستقل بأسباب الحياة وحده حتى فى أبسط الأمور التى تتصل بحياته - فرغيف العيش الذى يأكله يحتاج فيه إلى أبليس عاملة كثيرة تعاونه فيه وقد تَخَصَّصَتْ فى مراحِلِ إعدادهِ - كَمَنَّ بِحِرْثِ الأرضِ

(١) الحديث عن أبى شريح رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : والله لا يؤمن البغ رواه البخارى ومسلم ولفظه : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بواقته هـ .

(٢) وحديث " الجيران ثلاثة " رواه البزار وأبو الشيخ فى الثواب وأبو نعيم فى الحلية عن جابر ، والطبرانى عن هبة ، والحديث ضعيف وله طرق متصلة ومرسلة وكلها لا تخلو عن مقال ولفظ الحديث : الجيران ثلاثة ، فجار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقاً وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فأما الجار الذى له حق واحد فجار مفرق لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الجار الذى له حقان ، فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، أما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم . (٣) سورة الحجرات آية ٦ .

وَيَسْقُطُهَا ۖ وَمَنْ يَزْرَعُ الْبَذَرَ وَالْحَبَّ - وَمَنْ يَسْقِيهَا وِبرعائها من الآفات - ثم مَنْ
يَتَعَهَّدُهُ بِالْحِصَادِ وَالذَّرَاسِ وَالتَّذْرِيةِ - ثم مَنْ يَتَخَصَّصُ فِي الْمَطَاخِنِ وَالْمَخَابِزِ - كل ذلك
يسبق تجهيز الرغبة - ولا يستطيع الإنسان أن يستقل بكل ذلك وحده ۖ

ومثل ذلك يقال في تجهيز الملابس والمنسوجات وكل ما يتصل بالحياة - فإن الأفراد
يحتاجون فيه إلى التعاون الصادق حتى لا يعجز الفرد عن الوصول إلى مصالحه - لذلك حث الله
تعالى على التعاون ۖ

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدُوِّ وَأَنْ (١) »

وقد جعلت الشريعة مبدأ التعاون واجباً اشتراكياً - وجعلت لِمُجْتَمَعِ رِقَابَةٍ فَعَالَةً
على سلوك الأفراد واستقامتهم حتى لا يَخْرُجُوا عَمَّا رَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ۖ
مسئولية المجتمع عن سلوك الأفراد :

وتنجلي مسؤولية المجتمع عما عسى أن يَأْتِيهِ بعض أفراد المجتمع من شطط الجهالة ودوافع
الهوى والميل في تمثيل واضح قد وَرَدَ في حديث من أحاديث رسول الله - صلوات الله
وسلامه عليه - حيث يقول :

« مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ
أَعْلَاهَا ، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا - فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ
- فَقَالُوا لَوْ أَنَا خَرَقْنَا مِنْ لَصِينِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُوْذَ مَنْ فَوْقَنَا ؟؟ فَلَمَّا تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَاكُورًا
جَمِيعًا - وَإِنْ أَخْلَوْا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا وَنَجَّوْا (٢) جَمِيعًا » .

ففي هذا الحديث تمثيل المجتمع الإسلامي بمن فوق السفينة وفيهم المحافظون على حدود
الله والمفرطون فيها - وفيه تمثيل المجتمع الطائع الواعي بمن أصاب الطائفي الأعلى من السفينة
(والعلو يناسب الطائعين) وفيه تمثيل الطبقة المُسْتَحْرِفَةِ التي تميل إلى ارتكاب المنكرات
بالباطنة التي أصابت أسفل السفينة والسُّكُونُ يناسب العصاة الذين يوتكبون ما نهى
الله عنه ۖ

(٢) الحديث رواه البخاري والترمذي وأحمد ۖ

(١) سورة المائدة آية ٢ .

وَمَحَاوَلَةُ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى لِحَرْقِ السَّفِينَةِ تَمَثِيلٌ لِارْتِكَابِ الْمُنْكَرِ - وَالشَّرْعُ فِي عَمَلٍ فَاسِدٍ كَحَرْقِ السَّفِينَةِ تَمَثِيلٌ لِيْلَهُمْ بِفِعْلِ الْمُنْكَرِ الَّذِي لَوْ تَسَمَّ لَكَانَ فِيهِ غَرَقُ السَّفِينَةِ وَهَلَاكُ جَمِيعِ مَنْ فَوْقَهَا بِسَبَبِ فَعْلِهِمْ السَّيِّئِ - فَلَوْ أَنَّ الطَّبَقَةَ الْعُلْيَا الَّتِي تَمَثِّلُ الْعُلَمَاءَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِمَبَادِي دِينِهِمْ سَكَتَتْ وَرَضِيَتْ عَنْ فِعْلِ الْمُنْكَرِ لَكَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُ الْجَمِيعِ ، وَهَذَا تَمَثِيلٌ لِعَذَابِ اللَّهِ الشَّامِلِ لِلطَّائِعِينَ وَالْعَصَاةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ ،

« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً (١) » :

أَمَّا إِذَا قَامَ الطَّائِعُونَ بِوَأْجِبَاتِهِمْ وَنَهَوْهُمْ عَنِ ارْتِكَابِ الْمُنْكَرِ فَلِإِنْ النِّجَاةُ تَكْتَبُ لَهُمْ جَمِيعًا - وَفِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ (٢) « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَتَمَّ يُغَيِّرُوهُ يُوشِكُ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابِهِ » . أَمَّا السَّفِينَةُ نَفْسُهَا فَهِيَ تَمَثِّلُ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ وَمَبَادِيهَا فَكَمَا أَنَّ السَّفِينَةَ قَدْ أُعِيدَتْ لِتَشْتَقِ عُيَابَ الْبَحَارِ وَتَحْمِلَ مَنْ فَوْقَهَا إِلَى بَرِّ السَّلَامَةِ وَشَاطِئِ النِّجَاةِ فَكَذَلِكَ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ وَمَبَادِيهَا قَدْ شَرَعَتْ لِتَرْسُمَ لِلْمُسْلِمِينَ حُسْنَ السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ فَتَنْتَقِلُ بِسَبِيلِ اللَّهِ وَاعْتَصِمَ بِحَبْلِ اللَّهِ فَقَدْ فَازَ وَنَجَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

المسئولية الشرعية في باب التكليف :

بِمُنَاسَبَةِ الْحَدِيثِ عَنْ مَسْئُولِيَةِ الْمُجْتَمَعِ تُتَمِّمُ الْكَلَامَ فِي مَرَاتِبِ التَّكْلِيفِ وَالْمَسْئُولِيَةِ فَنَقُولُ :
إِنَّ مَرَاتِبَ الْمَسْئُولِيَةِ فِيمَا يَكْلَفُ بِهِ الْإِنْسَانُ شَرْعًا أَرْبَعَةٌ :

الأولى - مسئولية الفرد عن نفسه إذا بَلَغَ وَكَانَ عَاقِلًا وَقَدْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فَهُوَ الْمَكْلَفُ وَالْمَسْئُولُ عَنْ نَفْسِهِ فِي الْاسْتِقَامَةِ وَالْإِنْخِرَافِ :

الثانية - مسئولية ولي الأمر المباشر لولده وَمَنْ فِي حُكْمِهِ تَنْقَلُ إِلَيْهِ الْمَسْئُولِيَةُ إِذَا انْخَرَفَ مَنْ هُوَ تَحْتَ إِشْرَافِهِ وَوَلَايَتِهِ فَهُوَ الْمَسْئُولُ عَنْ تَقْوِيمِهِ وَحَمْلِهِ عَلَى الْاسْتِقَامَةِ - فَلِذَا انْخَرَفَ وَلِيَّ الْأَمْرِ الْمُبَاشِرِ وَلَمْ يَصْلُحْ لِلْقَوَامَةِ بَلْ انْطَبَقَ عَلَيْهِ قَوْلُ الْقَائِلِ :

إِذَا كَانَ رَبُّ الْبَيْتِ بِالْذُّفْرِ ضَارِبًا : فَشَيْمَةٌ أَهْلُ الْبَيْتِ كَمَا هُمُ الرِّقَصُ

لِإِنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلْوَلَايَةِ ، وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ رَبِّ بَيْتٍ يَصْلُحُ لِلْإِشْرَافِ عَلَى

(١) سورة الأنفال آية ٢٥ .

(٢) رَوَى أَصْحَابُ السَّنَنِ بِصَحِيحِ الْحَدِيثِ : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ » .

بيته ولا يقوم مقام القانون على أسرته كما قال بعض الناس - فهناك من أولياء أمور الأسرة من يكون منحرفاً وحينئذ فتنتقل المسؤولية إلى المرتبة الثالثة .

وهي مسؤولية المجتمع في تقويم الأفراد المنحرفين - وقد مرَّ بك قريباً دليل ذلك في حديث السَّفينة « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها^(١) » إلخ .

فإذا انحرف المجتمع وألِف ارتكاب المنكرات وتَفَادَمَ عليه العهد دون تكبر حتى أصبح المنكرُ معروفاً - والمعروفُ منكراً وجب حينئذ انتقال المسؤولية إلى الدرجة الرابعة .

وهي مسؤولية الحاكم - الذي بآيَعْنَاهُ على الطاعة وحمَّلْنَاهُ مسؤولية الأفراد والمجتمع :

فلذا رأى الحاكم انحرافاً في المجتمع وجب عليه أن يستخدم سلطته في تغيير المنكرات وحمَّلَ الناس على الاستقامة حتى يقوم حُكْمُهُ عَلَى صِلَةِ بالدين والعقيدة فإن من الناس مَنْ تنفعه مواعظ العلماء عن طريق الرغبة - ومنهم مَنْ لا ينفع فيه إلا السلطان مع الرهبة وهذا المعنى هو الذى أشار إليه سيدنا عثمان رضى الله عنه حين قال « إن الله لَيَنْزِعَ بالسلطان ما لا يَنْزِعَ بالقرآن » .

وقد أشار النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى أن إصلاح المجتمع به قف على صلاح طائفتين من الناس فإذا فَسَدَ الناس كلهم - فقد قال - عليه الصلاة والسلام - :
« صِنْفَانِ مَنْ أَمِنَى إِذَا صَلَحَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، وَإِذَا فَسَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ،
العلماءُ والأُمراءُ^(٢) » فالعلماءُ عنوان رجال الدين الذين يُبَيِّسُونَ للناس مَقَامَ مَعَالِمِ الحلال والحرام والأُمراءُ عنوان الحُكَّام الذين بيدهم السلطة التنفيذية - فإذا تجاوب العلماءُ والحكام وقويت الروابط بينهم ، صَلَحَ أَمْرُ النَّاسِ جميعاً في ظل تمكين العلماء من البيان والإرشاد مع الحرية التامة في نصِّح العامة والخاصة ، وفي ظل اهتمام الحُكَّام بِحِرَاسَةِ العقيدة الصحيحة مع الهيمنة على تغيير المنكر في الحال وفقاً لِمَا يقوم به رجال الدين من بيان معالم الحلال والحرام في ظل الشريعة الإسلامية - وهكذا كان حال المجتمع في صدر

(١) انظر ص ٥١ من هذا البحث .

(٢) الحديث رواه أبو نعيم في الحلية ، وابن عبد البر عن ابن عباس ولفظه : « صنفان من الناس إذا صلح صلح الناس ، وإذا فسد فسد الناس العلماء والأُمراء » أ هـ والحديث ضعيف .

الإسلام ، فقد كان الخليفة حاكماً وعالماً ، فَبِعِلْمِهِ يُبَيِّنُ للناس السَّمْنَهَجَ الشَّرْعِيَّ وَيَحْكُمُهُ
يُغَيِّرُ المَذْكَرَ فِي الْحَالِ قَبْلَ أَنْ يَطُولَ عَلَيْهِ الْعَهْدُ فَيَأْتِلْقَه النَّاسُ وَيَصِيرَ فِي حُكْمِ الْمَعْرُوفِ
عِنْدَهُمْ - وَقَدْ مَضَى عَلَيَّ وَرَثَةُ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَهْدٌ طَوِيلٌ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ يَتَمَتَّعُونَ فِيهِ
بِمَوَازِرَةِ الْحُكَّامِ وَحِرَاسَةِ الدِّينِ فَكَانَ لِلْعُلَمَاءِ جَوْلَاتٌ وَصُولَاتٌ وَكَانَ النَّاسُ يَسْمَعُونَ لَتَهُمْ
وَيَسْتَجِيبُونَ لِنُصْحِهِمْ « إِذَا ادَّعَوْا جِئَاتِ الدُّنْيَا مُصَدِّقَةً » ، وَإِنْ دَعَوْا قَالَتْ الْأَيَّامُ
أُمِيناً » فَإِذَا انْحَلَّتِ الرُّوَاطُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَأَصْحَابِ السُّلْطَانِ بَدَأَ الْفَسَادُ وَالْانْحِلَالُ فِي الْمَجْتَمَعِ
وَأَصْبَحَ الْعُلَمَاءُ يَقُولُونَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ وَلَا سَمْعَ لَهُمْ مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ مِنَ
أَصْحَابِ السُّلْطَانِ مَنْ يُعْتَنِي بِالنَّكِيرِ إِذَا صَدَرَ مِنَ الْخَالِفِينَ خُرُوجٌ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ :

وَمِنَ الْقَوْلِ الْمَرْدُودِ مَا زَعَمَهُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَجَدَهُمْ عَلَيْهِمْ كِفْلُ النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ
وَأَنَّ مَوَاعِظَهُمُ الرُّوحِيَّةَ كَفِيلَةُ بِصَلَاحِ أَمْرِ النَّاسِ وَحَدَهَا - ذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -
كَانَ أَفْضَحَ النَّاسِ وَأَقْوَاهُمْ حُجَّةً وَأَعْلَاهُمْ أَسْلُوباً وَكَانَ أَتَقَى النَّاسَ وَأَخْوَفَهُمْ مِنَ اللَّهِ
وَمَعَ ذَلِكَ احتَاجَ فِي نِهَآيَةِ الْأَمْرِ إِلَى الْجِهَادِ وَاسْتِعْمَالِ السَّيْفِ دِفْعاً عَنْ حَوْزَةِ الدِّينِ مِنْ أَضْرَارِ
الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ طَمَسَ اللَّهُ عَلَى بَصِيرَتِهِمْ فَلَمْ تَنْفَعْ فِيهِمُ الْمَوَاعِظُ النَّبَوِيَّةُ وَلَكِنْ سُلْطَانُ
السَّيْفِ هُوَ الَّذِي أَخْضَعَهُمْ لِلْحَقِّ فَدَالَتْ دَوْلَتُهُمْ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً :

وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ الْخَالِقَ طَبِيعَةَ عِبَادَةِ الْمَخْلُوقِينَ وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَنْفَعُهُ الرِّغْبَةُ وَاللَّيْنُ - وَمِنْهُمْ
مَنْ لَا يَفْلَحُ مَعَهُ إِلَّا الشَّدَّةُ وَالرَّهْبَةُ لِذَلِكَ كَانَتْ الرِّسَالَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَحْتَاجُ إِلَى الْأَمْرَيْنِ فِي سَبِيلِ
الدَّخْوَةِ إِلَى اللَّهِ - وَلِلذَلِكَ جَاءَ الْقُرْآنُ فِي عِظَاتِهِ وَتَوْجِيهَاتِهِ مَرَّةً بِاللَّيْنِ : مَرَّةً بِالْإِنْذَارِ وَالتَّخْوِيفِ
وَكَثِيراً مَا يَتَمَتَّنُ فِيهِ الْوَعْدُ بِالْوَعِيدِ - وَالنَّذِيرُ وَالتَّنْبِيهُ ، لِيَصِلَ الرَّاْغِبُونَ إِلَى وَعْدِهِ - وَلِيَخَافَ
الْمُنْحَرِفُونَ مِنْ مَقَامِ الرَّهْبَةِ - وَفِي كُلِّ مِنَ الْمَقَامَيْنِ ذِكْرٌ وَاعْظَةٌ « الذِّكْرُ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » وَإِلَى
هَذَا نَهَيْتُ أَهْدَافَ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الثَّلَاثَةَ - وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَلَمَّسَ هَذِهِ الْأَهْدَافَ فِي نَصُوصِ
الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَخْذَهَا مِنْ سُورَةٍ قَصِيرَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَحَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ
رَسُولِ اللَّهِ - أَمَا السُّورَةُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ سُورَةُ (وَالْعَصْرِ) الْإِنْسَانُ لَفِي
خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) :

وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَفِي قَوْلِ الرَّسُولِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - لِمَنْ جَاءَهُ يُطَلَّبُ وَصِيَّتُهُ :

« اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن (١) » :

فالهدف الأول - وهو إصلاح حال العباد فيما بينهم وبَيْنَ رَبِّهِمْ ، مُشْكِرًا إِلَيْهِ بقوله تعالى في سورة العصر : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا » :

وبقوله - ﷺ - في الحديث « اتق الله حيثما كنت » فالإيمان وتقوى الله من عمل القلوب وذلك هو الأساس الأول للإيمان الصادق والتوحيد الخالص الذي هو حق الله على عباده - وفي الحديث الشريف عن معاذ بن جبل قال : كنت خائف رسول الله - ﷺ - على حمار يقال له يعفور - فقال في حديثه : أتدرى يا معاذ ما حق الله على عباده ، وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم - قال فلن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً - وإن حق العباد على الله ألا يُعَذَّبَ - من مات - ولم يشرك به شيئاً (٢) » :

أما الهدف الثاني - وهو إصلاح حال العبد في خاصة نفسه فيما بينه وبين ربه - فَمُشَارًا إِلَيْهِ في سُورَةِ العصر بقوله : « وعملوا (٣) الصالحات » ويقابل هذا في الحديث قوله - ﷺ - : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » فعمل الصالحات ومتابعة السيئات بالحسنات مما يحقق الهدف الثاني وهو إصلاح حال العبد فيما بينه وبين ربه : وفي خاصة نفسه :

أما الهدف الثالث - وهو إصلاح حال المجتمع وواجب كل فرد فيه نحو المجتمع الذي يعيش فيه فمشار إليه في سورة : (والعصر) بقوله : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » :

« ويقابله في الحديث قوله - عليه الصلاة والسلام - « وخالف الناس بخلق حسن »

(١) حديث : اتق الله حيثما كنت . . . الخ . رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذر وقال الترمذي حسن صحيح .

ورواه أحمد والترمذي والبيهقي عن معاذ ، قال الذهبي في المذهب أصحاده حسن . ورواه ابن عساكر عن أنس بسند ضعيف .

(٢) الحديث رواه الشيخان والترمذي ، ولفظه : عن معاذ بن جبل قال : كنت ردفت النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له يعفور ، فقال : يا معاذ هل تدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله عز وجل ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً قلت : يا رسول الله أفلا أبشر الناس ، قال لا تبشروهم فيتكلوا » .

(٣) سورة العصر الآية ٣

فإن إصلاح المجتمع يتوقف على أن تكون المعاملة دينية أو دنيوية قائمة على قول الحق والنواصي به بين أفراد المجتمع - وعلى أن يتذرع الإنسان بالصبر وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد - ومجموع العمل بهاتين الصفتين ينطوى تحت قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه « وخالق الناس بخلق حسن » فالحق والتذرع بالصبر ومخالقة الناس بخلق حسن كل ذلك كفيل بإصلاح المجتمع - ولو أن الناس جميعاً راعوا هذه الصفات في جميع معاملاتهم لذهب الخلاف وقضي على المنازعات والمشاحنات فيما بينهم - ولقد صدق من قال - لو أنصف الناس لاستراح القاضي - فإذا قام كل فرد برعاية الحق والعدل وتذرع في الشدائد بصفة الصبر - وخالق الناس بخلق حسن فلا شك أنه برعى حق المجتمع . فيأخذ بالعدل حقه - ويعطى بالمعروف حق الناس عليه وذلك من أهم العوامل لتحقيق الهدف الثالث من أهداف الرسالة الإسلامية :

﴿ وإلى هنا قد تبين للناس أن الشريعة الإسلامية قد رسمت للناس منهج الحياة العزيزة الكريمة وأن الله تعالى قد جاءهم بكتاب مبين ضمّنهُ مصالح العباد وهو أعلم بما فيه نفعهم وقد ملأه بالندر والتهديد ليقيم بذلك عيوبهم - وأرسل إليهم رسولا أنزل عليه هذا الذكر ليبين للناس ما نزل إليهم ﴾

وقد أدى النبي محمد « صلوات الله وسلامه عليه » رسالته وأوضح للناس معالم الحلال والحرام وأرشدهم إلى ما فيه صلاح أمورهم في دينهم ودنياهم - وبعد أن أتم هذه الرسالة لحق بربه - وتولى أمر الخلافة من بعده في المحافظة على الرسالة الإسلامية أصحابه من الخلفاء الراشدين المهديين فكانوا خير من تمسك بها وحافظ على مبادئها - وقد قال عليه الصلاة والسلام « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ » (١) :

« فن المستول عن هذه الرسالة الإسلامية بعد أن مضى هؤلاء جميعاً وسلموا الرسالة لمن بعدهم وأصبحت أمانة في أعناقهم - وفي أعناق من يرثهم من بعدهم »

ورثة الرسالة الإسلامية :

بعد أن مضى عهد الخلفاء الراشدين ورث المسلمون عن نبي الإسلام أعظم رسالة دينية رسمت لهم من مبادئ دينهم ما يصلح شأنهم في كل زمان ومكان إلى أن تقوم

(١) الحديث : عليكم بسنتي : رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد .

الساعة - وقد اختار الله لهذه الرسالة في كل عصر صفوة من العلماء حُرَّاساً عليها أمانة على تبليغها ، قائمين على أمرها حتى طلعت شمسُ هذه الرسالة في سماء الأزهر الشريف ، فكان هذا المعهد العتيق حِصْناً للشرعة الإسلامية ، ومعيناً للبلاغة العربية .

وقد مضى عليه أكثر من ألف عام وهو يضطلع بهذه الرسالة حتى شَعَّ نورها على العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها وبذلك صار الأزهر كعبة تقصُّدُ إليها البعثات الإسلامية ، فكان مصدر خير لها في دينها ، وكان من أقوى العوامل للربط بينها وبين كل مجتمع إسلامي مهتماً بتأت به الديار - وأصبحت مصر في ظل الأزهر الشريف زعيمة البلاد الإسلامية ، فبدأ إليه البعثات من الخارج ، ونخرج منه البعثات الدينية إليها ، لتتجاوب الثقافات الدينية الإسلامية في كل ناحية ، لنفع العباد ، ونشر هذه الرسالة المحمدية في كل واد .

« ذلك هدى الله يهلى به من يشاء من عباده (١) »

الصلة بين رسالة الأزهر ورسالة نبي الإسلام :

من ذلك ترى أن رسالة الأزهر هي رسالة نبي الإسلام - ولا ينتج علماء الأزهر في أداء هذه الرسالة والحفاظ عليها إلا بما نتجح به نبي الإسلام - ومن تتبَّع الجهاد النبوي ، والمَسْلَك الذي سلكه رسول الله في دعوة الناس إلى ربهم ، وكيف نجح في أداء تبليغ دعوته ، وأداء رسالته ، يُدرك أنها قامت على عاملين قويين ، لا يستغنى أحدهما عن الآخر :

١ - عامل الإرشاد والبيان الذي يقوم على الإقناع بالحجة والبرهان ، حتى تتمكن العقيدة الصحيحة في القلوب ، عن فهم واختبار دون قهر وإكراه .

٢ - عامل الجهاد القائم على القوة والسلطان - دفاعاً عن الحق من اعتداء المعارضين المعتدين حتى يستقر أمر المسلمين في دينهم وأوطانهم .

على هذين العاملين قامت الدعوة المحمدية ، وبهما انتهى الأمر إلى أن دخل الناس في دين الله أفواجا - وقد بدأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالعمل الأول ، فدعا الناس

(١) سورة لأنعام آية ٨٨ .

إلى رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَكَانَ يَجَادِلُهُم بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ - وَيُوجِّهُ أَنْظَارَهُمْ إِلَى النِّظَرِ
 الْآيَاتِ وَالْآفَاقِ ، وَالْإِعْتِبَارِ بِمُلْكُوتِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ، حَتَّى يُؤْمِنُوا عَنْ بَيِّنَةٍ . « لَا إِكْرَاهَ
 فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » (١) وَاسْتَمَرَ النَّبِيُّ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ ثَلَاثَةَ
 عَشَرَ عَامًا وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ لَمْ يَسْتَعْمَلْ فِيهَا قِتَالَ - وَبَعْدَ أَنْ أَوْضَحَ لِلنَّاسِ مَعَالِمَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ
 وَأَصْبَحَ الْحَلَالُ بَيْنَنَا وَالْحَرَامُ بَيْنَهُمْ ، آمَنَ مَنْ آمَنَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَتَخَلَّفَ عَنِ الْإِيمَانِ ، مَنْ
 لَمْ يَقْذُقْ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ - وَمِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ قَامَتِ الْمَعَاضَةُ لِلدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَوَقَفَتْ وَرَاءَ
 الْحِجَابِ وَلَمْ تَسْتَجِبْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ تَعْصِبًا وَعِينَادًا مَعَ أَنَّهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ كَمَا يَعْرِفُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ
 - فَتَأَمَّرُوا عَلَى وَضْعِ الْعُقَبَاتِ ، وَقَلَّبُوا نِظَامَ الدَّعْوَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -
 وَكَادَتْ فِتْنَتُهُمْ تَزْزِلُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ لَوْلَا أَنْ أَسْعَفَ اللَّهُ لُبِّيَّهَ بِالْعَامِلِ الثَّانِي عَامِلِ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ
 فَأَمَرَهُ بِالْجِهَادِ ، وَنَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى :

« أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا » (٢) :

وَبِالْجِهَادِ دِفَاعًا حَصَّنَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ وَنَشَرَ رِسَالَتَهُ ، وَلَمَّا وَضَعَ السِّيفَ فِي رِقَابِ الْكُفْرَةِ
 الْمَعَانِدِينَ ، ذَلَّتْ جَبَّةُ الْكُفْرِ ، وَدَالَتْ دَوْلَةُ الشُّرْكِ . وَبِذَلِكَ أَسْعَدَ اللَّهُ النَّاسَ بِنِعْمَةِ
 الْإِسْلَامِ وَأَمِنَ النَّاسُ فِي أَوْطَانِهِمْ ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا - وَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ
 نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ .

وَمِنْ هَذَا تَرَوْنَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَعَ رَجَاحَةِ عَقْلِهِ ، وَقُوَّةِ بَيَانِهِ وَسَطْوَةِ
 حُجَّتِهِ فِي سَبِيلِ دَعْوَتِهِ لَمْ تَتِمَّ لَهُ هَذِهِ الرِّسَالَةُ آخِرَ الْأَمْرِ إِلَّا بِالْجِهَادِ وَالْجَلَاءِ وَعَلَى هَذَا الْمُنَوَالِ
 يَكُونُ شَأْنُ مَنْ وَرَثَ الرِّسَالَةَ وَتَحَمَّلَ تَبْلِيغَهَا وَالْحِفَاطَ عَلَيْهَا - وَأَصْبَحَ مَسْئُولًا عَنْ مَبَادِئِهَا ،
 فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَنْجَحَ فِي التَّهَوُّضِ بِهَا إِلَّا بِهَلْدَيْنِ الْعَامِلَيْنِ :

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ فِي شَأْنِ هَذَيْنِ الْعَامِلَيْنِ ، وَأَنَّ إِصْلَاحَ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ
 يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِمَا - فَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

« صَنَفَانِ مِنْ أُمَّتِي ، إِذَا صَلَحَا صَلَحَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ
 الْعُلَمَاءُ وَالْأُمَرَاءُ » (٣) فَالْعُلَمَاءُ عُنْوَانُ رِجَالِ الدِّينِ وَهُمْ الَّذِينَ يَبَيِّنُونَ لِلنَّاسِ مَعَالِمَ الْحَلَالِ

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٦ .

(٢) سورة الحج آية ٣٩ .

(٣) سبق تخريج الحديث ص ٣٩٧ من هذا البحث .

والحرام - والأمراء عثوان القوة والسلطان - فإذا توثقت العلاقة بين العلماء والحكام ومن مجموعهما يكون البيان والسلطان صالح المجتمع الإسلامي - وقام أمر الناس على النهج المحمدي - في ظل توثيق العلاقة بين العلماء أصحاب البيان - والحكام أصحاب السلطان :

الصلة بين العقيدة والقوة :

فنجاح المسلمين في رسالتهم تحتم الربط القوي بين العقيدة والقوة - فإن القوة وحدها لا تؤتي ثمرتها ، ولا تكفي في رفع الروح المعنوية في الجهاد ، ونشر الأمن بين الناس في المجتمع الإسلامي إلا إذا استندت على العقيدة الدينية التي تُسمِّيها وتذكِّيها - كما أن العقيدة وحدها لا بد لها من قوة ترفعها وتحميها - ولهذا يقول سيدنا عثمان (رضى الله عنه) : « إن الله ليرزق بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن » .

وقد أدرك السلف من الولاة سِرَّ هذه الرابطة فكانوا يحرصون على احتضان الأزهر لأنه مصدر العقيدة الدلالية التي تُشَبِّت من دعائم الدين وترفع من الروح المعنوية في الجيش وفي كل أفراد المجتمع - وبالتعاون بين الجميع على هذا الأساس تحفظ حقوق الناس في أوطانهم ، وتسعد البلاد - ويعزز العباد فيما يتصل بدينهم ودنياهم :

« وبعد » فهل توافر لعلماء الأزهر هذان العاملان - وهل أدى الأزهر واجب هذه الرسالة التي ورثها عن نبي الإسلام - سنعرض لبيان هذا في كلمة عن حاضر الأزهر وماضيه :

الأزهر في حاضره وماضيه :

إن تحديد الإجابة على هذين السؤالين يقنضينا أن نعرض لتاريخ الأزهر قديماً وحديثاً ، ونوازن بين عهدين ، عهد مضى وكان حافلاً بما للأزهر من جلال يمثّل به التاريخ فخراً - وعهد آخر قد تلوث بسياسة المستعمرين حيناً من الدهر ، ففضى بِتَعَشُّرٍ في أداء رسالته . كما حاول أن ينهض اعتراضه الثابتات التي تعجزه حسب المجتمع الذي يعيش فيه ، والظروف التي تناهضه أو تواتيه :

والأزهر ككل مؤسسة علمية ناهضة تعثره عوامل القوة والضعف تبعاً للظروف التي يتأثر بها من ناحية استعداد المسئولين فيه ومبلغ ما لهم من نفوذ روجي لدى الحاكمين فتسارة

يَسْمُو بِهِم الْوَزَاعِ الدِّينِي حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ مَا كَانَ لِعُلَمَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّوْلَةِ الرُّوحِيَّةِ ، وَجَلَالِ الْهِيمَةِ الدِّينِيَّةِ ، الَّتِي تَجْعَلُ لَهُمْ قُوَّةَ التَّأْيِيرِ ، وَفَضْلَ الْإِرْشَادِ . وَحُسْنَ التَّوْجِيهِ فِي الْمَجْتَمَعِ الَّذِي يَتَقَلَّبُونَ فِيهِ ، وَتَارَةً تَحْبِطُ بِهِمْ عَوَامِلُ الضَّعْفِ الَّتِي تُفَيِّدُهُمْ عَنْ وَاجِبِهِمْ وَتَسْلُبُ سُلْطَانَهُمُ الرُّوحِي ، وَتَنْزِلُ مِنْ قُدْرِهِمْ ، فَلَا تَجِدُ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ حَيْثُ إِلَّا لَأَنَّمَا أَوْ عَادَرَا - وَعَلَى هَذَا الْإِسْلَامِ يَسْتَطِيعُ الْمُنْصَفُ أَنْ يَسْجَلَ لِلْأَزْهَرِ - وَهُوَ أَكْبَرُ جَامِعَةِ إِسْلَامِيَّةٍ - مَا يَسْتَحِقُّهُ فِي مَاضِيهِ الْمَجِيدِ مِنْ قُوَّةٍ رُوحِيَّةٍ دَلِيلَةٍ كَانَ يَسِيرُ بِهَا عَلَى أَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَيَنْفِذُ بِهَا إِلَى قُلُوبِ الْمَجْتَمَعَاتِ فَيُحَسِّنُ تَوْجِيهَهَا إِلَى اللَّهِ - وَيَقِفُ بِهَا عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ - وَبِذَلِكَ يَعْزِزُ الدِّينَ وَيَسْعِدُ الْوَطْنَ - وَيَسْتَطِيعُ الْمُنْصَفُ كَذَلِكَ أَنْ يَسْجَلَ عَلَى الْأَزْهَرِ مَا أَصَابَهُ فِي حَاضِرِهِ ، وَوَقَفَ بِأَهْلِهِ مَوْقِفًا غَيْرَ مَحْمُودٍ - سَنَعْرُضُ لَهُ فِي حَاضِرِهِ وَمَاضِيهِ - ثُمَّ نَعْرُضُ لِلْعَوَامِلِ وَالْمَعْوَقَاتِ الَّتِي اعْتَرَضَتْهُ حَتَّى يَعْلَمَ النَّاسُ هَلْ هُمْ مَلُومُونَ أَوْ مَعْلُومُونَ - وَيُذْهِبُ أَنْ نَصَارِحَ النَّاسَ بِمَا لَنَا وَمَا عَلَيْنَا وَأَلَّا نَقُولَ إِلَّا الْحَقَّ - وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبَعَ وَمَا أَرَدْنَا إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْنَا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ :

الْأَزْهَرُ فِي مَاضِيهِ : كَانَ الْأَزْهَرُ فِي مَاضِيهِ يَضُمُّ الصَّفُوفَةَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ اسْتَخْلَفَهُمُ اللَّهُ وَجَعَلَهُمْ حِرَاسًا عَلَى الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَحَافِظُوا مَخْلَصِينَ لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ فَنَحْنُ اللَّهُ مِنَ الْهِيمَةِ مَا أَخْضَعَ لَهُمْ سُلْطَانُ الْمُلُوكِ ، وَأَلَانَ لَهُمْ قَنَاةَ الْمَجْتَمَعِ فَسَمِعَ النَّاسُ لَهُمْ وَأَطَاعُوا ، وَخَضَعَ الْوَلَاةُ لِسُلْطَانِ الدِّينِ ، فَكَانَ لَهُمُ الْقَوْلُ ، وَكَانَ لَهُمُ النُّفُوزُ وَكَانَتِ الرُّوَابِطُ حِينَئِذٍ وَثِيقَةً بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَأَصْحَابِ السُّلْطَانِ :

وَفِي ظِلِّ هَذَا الْأَزْهَرِ الْقَدِيمِ فِي الْمَاضِي كَانَ أَهْلُ الْأَزْهَرِ مَطْمَحَ أَنْظَارِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ - وَكَانَ لَهُمُ الصَّنْفُ الْأَوَّلُ فِي جَمِيعِ الْمَظَاهِرِ الْوَطَنِيَّةِ - وَكَانَتْ لَهُمُ الْمَوَاقِفُ الْمَشْهُودَةُ ، فِي مَقَاوِمِ الْإِسْتِعْمَارِ بَدَافِعُ مِنْ دِينِهِمْ ، وَكَانَ لَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الْعَقِيدَةِ مَا أَتَعَبَ الْمُسْتَعْمَرِينَ ، وَزَلْزَلَ أَقْدَامَهُمْ - فِي الْحَمَلَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ حَسَبَ نَابِلْيُونِ لِلْأَزْهَرِيِّينَ حِسَابَهُمْ ، وَكَانَ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهِمْ خِدَاعًا فَلَمْ يَفْلَحْ فِي إِخْضَاعِهِمْ - وَكَانَ شَيْخُ الْأَزْهَرِ حَيْثُ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ الشَّرْقَاوِي - فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ نَابِلْيُونُ وَلَمِنْ حَوْلِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْهَدَايَا لِيَتَقَرَّبَ إِلَيْهِمْ - فَرَمَوْا بِشَعَارِ الْإِسْتِعْمَارِ عَلَى الْأَرْضِ وَاسْتَمَرُّوا فِي الْمَقَاوِمَةِ ، حَتَّى قُتِلَ - كَلْبِيرُ - بِيَدِ طَالِبِ أَزْهَرِيٍّ - وَرَضِيَ أَهْلُ الْأَزْهَرِ بِمَدَافِعِ الْفَرَنْسِيِّينَ تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ مِنْ جَبَلِ الْمَقْطَمِ - وَمَا تَزَالُ آثَارُ رِصَاصِهِمْ فِي

بعض أعمدة الأزهر - رضوا بهذا ولم يَرْضَوْهُ بالخضوع لظلم الاستعمار . هذا موقف مشهود من مواقف الأزهر القديم .

ولا ينسى التاريخ موقف الأزهر الوطنى فى سنة ١٩١٩ فى مناهضة الاستعمار الإنجليزى تلك المواقف المشهودة النابعة من العقيدة الدينية كان لها أثرها . وكانت مصدر الوعى الدينى الوطنى ، وقد اقتبس الناس من ضوئها فى كل حركاتهم الوطنية ليظهروا البلاد من رجس الاستعمار - وكانت مواقف الأزهر قديماً هدياً لأهل الوطن - ولنا أن نقول بحق : إن كُلاً ثورة وطنية بعد سنة ١٩١٩ إنما هى صدَى لثورات الأزهر الشريف .

ومن هذا التاريخ تأمر المستعمرون على الأزهر ليغيروا من وضعه ، ويضعفوا من سلطان أهله حتى تستقر قدمهم فى مصر - واستقرَّ فى نفوسهم أن قوة الأزهريين مستمدة من عقيدتهم الدينية - وتتجلى خطط المستعمرين ضد الأزهر لمن اطَّاع على تقرير - مِلْسَر الإنجليزى - ومَا رَسَمَة - جورج لويد - فى كتابه - تاريخ مصر - ومن عهد الاستعمار بَدْأ وضعُ العقبات التى نَعَوَّق الأزهر عن أداء واجبه - وهكذا يقول أحد ساسة الإنجليز « إن قدم إنجلترا لا تستقر فى مصر ما دام الأزهر يدرس هذا الكتاب يعنى القرآن الكريم » .

وقد استغل الاستعمار الإنجليزى ضعف الحكومات السابقة ، وليس لها منهج دينى يُمَيِّدُهَا بقوة الإنكار على الاستعمار - فَلَا نَتَّ قَسَاتُهُمْ ، حتى استطاع الاستعمار أن يدخل إلى بلادنا القوانين الاستعمارية التى تُحَصِّن ما حرم الله - فاستعمل الربا فى ظل القانون وشرب الخمر بمعاونة القانون - وزنى المرأة برضاها فى غيبر بيت الزوجية فى حماية القانون .

ومن ذلك الوقت تَلَوْتُ المجمع الإسلامى واستعصم فى معاصيه بالقانون - وَمَنْ ثَارَ وَتَصَحَّ غَيْرُهُ عَلَى الدين اتهم بالخروج على نظام القوانين - وهكذا تحدث للناس أقضية وشهادات بقدر ما أحدثوا من الفجور .

ومن ذلك انتقل الأزهر من ماضيه المجيد إلى حاضره الذى يُلْجِئ إلى دوام النصحية وانتهاز الفرص التى تُؤَاتِيهِ فى الرجوع إلى ما كان له من هبة وغيرة على جلال الدين .

الأزهر في حاضره :

إذا كان الأزهر قد نجح في أداء رسالته في العهود الماضية فقد كان ذلك لتوفر العاملين الذين قامت عليهما رسالة الإسلام عامل البيان - وعامل القوة والسلطان - وكان بين العاملين الروابط الوثيقة التي توحد الهدف بين العلماء والحكام .

والسؤال الذي يوجه الآن بعد ما قدمنا من بيان - هل بقي الأزهر هذا السلطان الذي يؤيد دعوته ، ويبرز نصيحته ، ويحفظ به رسالته ؟

ينبغي أن نصارح الناس بأن الأزهر إذا كانت مهمته الآن قاصرة على بيان معالم الحلال والحرام في كلياته ومعاهده ، وقيام هيئة الوعظ في المساجد والندوات وكثير ما هم - فإن ذلك لا يمتنعنا من قول الحق - وأن الأزهر الآن أصبح مشغولاً بنصف رسالته التي تتعلق بالبيان لمعالم الحلال والحرام - وأصبح عاجزاً عن أداء النصف الآخر في ظل القوة والسلطان بعد أن مُني بمحاربة المستعمرين في ظل الحكومات الضعيفة السابقة التي وضعت ورصيصةً يمتنع بها القوانين التي تُحصن المنكرات في بلاد المسلمين - هذا أمر واقع ليس له من دون الله كاشفة - والآن سنضع أهل الأزهر في الميزان - لتحكم لهم أو عليهم فيما عجزوا عنه .

أما بيان معالم الشريعة وتذكير الناس بها ، فإزال أهل الأزهر يقومون بهذه المهمة في كلياتهم ومعاهدهم ومساجد الجمهورية كلها وفي الندوات والإذاعات - وأثر ذلك ظاهر فإنك لو أتيت بأي شخص من عرض الطريق وسألته عما وجب عليه وعما نهاه الله عنه لأجابه مع أنه لم يولد من بطن أمة عالماً - ولكن من رسالة العلماء والوعاظ عترف الحلال والحرام أما حمل الناس على الاستقامة بالعمل والتنفيذ فكقول بالقوانين وسلطانها وتطبيقها ومن المغالطة أن يُحمّل العلماء وحدهم عبء انحراف المجتمع بحجة أن البيان إذا كان نابغاً من القلب نفذ إلى القلب - ذلك قول صحيح مع الراغبين لا مع العارفين وهم يعاندون ويعارضون بدليل أن وظيفة البيان كانت في أعلى مستواها أمام النبي - ﷺ - ولا يستطيع أحد أن يجاريه في أسلوبه وهيبته ، ولا في بلاغته

وقوة حجته - ومع ذلك احتاج أنخبراً إلى السيف فلو كان البيان العلمى وحده كافياً لما شرع الجهاد وقوة السلطان :

العوامل والمعوقات التى وقفت عقبة فى سبيل رسالة الأزهر :

(١) سياسة الاستعمار :

لَمَّا كان حب الوطن والدفاعُ عنه من صميم الرسالة الإسلامية وهى رسالة الأزهر قام أهل الأزهر ضد الاستعمار بثوراتهم الوطنية القوية المشهورة برغم أنهم عزل من السلاح ، فقد كانت عقيدتهم أمضى من سلاح المستعمرين - وقد أتعب أهل الأزهر المستعمر الفرنسى ، ومن بعده المستعمر الأنجليزى، فى ثورة سنة ١٩١٩ :

ومن هذا التاريخ أيقن الإنجليز أن العقيدة الدينية هى مصدر تعيهم ، وهى أقوى العوامل فى مقاومة الاستعمار - لهذا عنى الإنجليز بدراسة حالة الأزهر ، ووضع التخطيط الذى يُغَيِّرُ من نظامه حتى يخضعوه - وقد ربط اللورد كرومر فى كتابه (مصر الحديثة) ثبات الاحتلال وتنفيذ سياسة الاستعمار بإضعاف الأزهر وتغيير نظامه حتى يطفى عليه منهج التعليم المدنى وينصرف الناس عنه بحجة توحيد التعليم والهدف من هذا أن يقع الأزهر تحت خضوع إحدى الوزارات فيتمكن المستشار الإنجليزى (دانلوب) الذى كان يسيطر على التعليم المدنى من إضعاف الأزهر بواسطة الحكومات السابقة الضعيفة - وقد رسموا لذلك سياسة تحمل الأزهر على الاندماج فى وزارة المعارف إذ ذاك - ومن كلام اللورد كرومر فى كتابه (مصر الحديثة) قال : فإذا تعذر إندماج الأزهر فى الوزارة فلا بد من رعاية أمور ثلاثة فى معاملة الأزهرين

١ - حرمان الأزهرين من وظائف الدولة الكبرى مخافة استغلال عقيدتهم فى مجال وظيفتهم .

٢ - عدم تسوية المؤهلات الأزهرية بالمؤهلات المدنية فى القيم المادية حتى ينصرف الناس عن الأزهر :

٣ - إضعاف الصلة التى تربط بين التعليم الدينى والتعليم المدنى - وقد كان من أثر ذلك إلغاء التعليم الدينى بالمدارس الإلزامية حينذاك - ولما قام الخيرون من أهل الغيرة

بإنشاء جمعيات لتحفيظ القرآن سلطوا عليها وزارة الصحة لتغلقها بحجة أن أممكتها غير صحية - وما زالت هذه المبادئ المعادية للأزهر مرعية بالتوارث عن الروح الخبيث الذي رسمه المستعمر - وما زالت الفوارق المساوية بين قيم المؤهلات الأزهرية وغيرها ، وقد مرت العهود الطويلة على التعليم الديني وهو مضطرب بين إلغائه أو وجوده مع اعتبار الرسوب فيه غير عائق عن نجاح التلاميذ ليتهاونوا في حفظ كتاب الله تعالى :

والحمد لله قد بدأ عهد الثورة الحالية بالجمهورية العربية المتحدة يتدارك هذا النقص يجعل التعليم الديني إجبارياً واشتراط في اللغة العربية شروطاً تحمّل المتعلمين على العناية بها :

(ب) أعوان الاستعمار بأقلامهم المأجورة :

كانوا من عوامل هدم الأزهر لأن ثقافتهم كانت مُلقحة من ثقافة الأجانب - فكانوا يظهرون في كل فرصة سانحة بأقلامهم المأجورة للحط من شأن الأزهر والنيل من كرامة أهله حتى يهونوا على المجتمع - وكانت تنشر مقالاتهم في ظل صاحب الخطوة الثانية التي كانت من خطوات الشيطان وتحذف المقالات الأزهرية للرد عليهم أو تُختزل اختزالاً معيباً تحت عنوان في آخر الصفحات وكانوا يُحسّسون للحاكم منهمجهم ويقصدون من وراء ذلك القضاء على الأزهر - ولكن الله تعالى أبى إلا أن يبقى هذا المعهد العتيق « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

(ج) سُحررُوا الصُّحُف والمجلات المتحللون الإباحيون :

هؤلاء كانوا من العوامل التي تنفث سُمومها ضد الأزهر - وضد مبادئ الدين ، ينشرون المقالات المشككة في العقيدة ليُضلُّوا بها أذهان الشباب والعوام الذين يجهلون سير الشريعة وليس لهم قوة الدفاع عن مبادئ دينهم - فمن مقالات تشكك في وجود الله ، إلا مقالات تستفهم عن يوم البعث وما فيه من حساب ، مستبعدين وقوعه بعد أن صار الناس عِظاماً نخيرة - إلا مقالات تدعو إلى الاختلاط وتحديد النسل ومنع الطلاق ، وتعدد الزوجات - إلى تسوية الرجل بالمرأة فيما جعله الله من حق الرجال فقط - إلى الدعوة إلى

التمسك بتقاليد الغرب ليطلعوا بذلك على التقاليد الإسلامية التي ورثها أهل الشرق من الآداب الدينية والاجتماعية وفي هذه المقالات قضاءً على تراث كريم حفظ على المسلمين عزيمتهم وكرامتهم - تلك صحف ومجلات لا يعنى أصحابها إلا الكسب المادى من أى طريق - ومما يدل على أنها ليس لها مبدأ ثابت أن بعضها كان ينشر مقالا عن الخمر ومضارها لبعض الأطباء ثم فى الصفحة الثانية ينشر إعلاناً عن الخمر وأنواعها ليرغّب السكارى فى شربها وتناولها !! تلك صحف ومجلات كانت معاول هدم ليمّا درج عليه المسلمون فى نشر مبادئ الدين وآدابه .

(د) عزل الأزهر وحرمان مؤهلاته من التأهيل لوظائف الدولة الكبرى :

وهذا عامل قصد إليه المستعمرون حتى لا يوجد عنصر دينى فى شئون الدولة الكبرى مخافة أن ينزع فى مشروعاته إلى سنّ القوانين المستمدة من مبادئ الدين الإسلامى وبالتالي ينصرف الناس عن الأزهر لأنه لا يوصل إلى أهم مناصب الدولة .

وفى الحق أن هذا العامل الذى وضعه الاستعمار عقبة ضد الأزهر قد انتهك وتصدّع فى عهد رجال الثورة الحالية - فتولى بعض رجال الدين شئون بعض الوزارات التى لها صلة بالأزهر الشريف - وأخيراً قد تمت فى هذا العهد تسوية المؤهلات فى القيم المادية بعد أن اندمج الأزهر فى التبعية لوزارة الأوقاف .

ومن الخير أن نعرف للثورة وزعيمها إعادة الدراسة إلى الأزهر فى صورة الحلقات الدراسية لمناهج العلوم الدينية والعربية على الصورة التى كان عليها الأزهر قديماً حتى تعود إليه صبغته التى كانت للأزهر قديماً فى حرية النقاش والتعليم الذى يتصل بالرسالة الإسلامية - وكانت إعادة الدراسة موضع رغبة للملوك والرؤساء عقب اجتماع مؤتمر القمة الأول فى مصر ، حينما دخلوا الأزهر لزيارته فلم يجدوا فيه دارس علم بل كان مسجداً فقط - وكانت هذه النتيجة ناشئة من معوقات الاستعمار للأزهر - فما زالوا يضعون الخطط لإلغائه حتى أخرج مَن كان فيه من الطلاب إلى المعاهد النظامية بطرق استثنائية - ثم طالب الناس بفتح الأزهر لمن يرغبى طلب العلم لوجه الله - ففتح لهم على أن يسمى بالقسم العام - ولما امتلأ الأزهر بهم طالبوا بحقهم من الأوقاف التى تعين طلاب الأزهر

على طلب العلم - فانتهى أمرهم إلى إلغاء هذا القسم العام ، وكان المصريون ينتسبون إليه وأنشئ فيه قسم يسمى قسم البعوث الإسلامية ولا ينتسب فيه مصرى مخافة أن تحيا فيه الثورات الوطنية ثانياً - وإنما ينتسب إليه فقط طلاب البعوث من البلاد الإسلامية - ثم أخرج هذا القسم من الأزهر إلى مكان آخر خارج الأزهر وتحقق ما كان ينشده الاستعمار من جعل الأزهر مسجداً فقط - يبقى فيه اسم الأزهر فقط - حتى لا يثور العالم الإسلامى إذا عرف إلغاء هذا المعهد العتيق وإذا كنا نحمد للسيد رئيس الجمهورية إعادة الدراسة إلى الأزهر في شكل حلقات فإن هذا لا يمنعنا من أن نصارح المسئولين بأن إباحة الانتساب لقسم الدراسات العالية بالأزهر ، لطلاب الثانوية العامة لا يتفق والنظام الذى أعيد إلى الأزهر فناهج هذا القسم إنما تناسب الطلاب الذين لم إلما بعلمه سابقا في الأقسام الابتدائية والثانوية الأزهرية - وليس لطلاب الثانوية العامة قدرة على فهم كتب الأصول والبلاغة وما يتصل بهما في الدراسة العالية - ويضاف إلى ذلك أن طلاب الثانوية العامة الذين أبيح لهم دخول القسم العالى بالأزهر - قد نزلت بهم مجموعاتهم العلمية إلى درجة ضعيفة حتى إنها لم تسعفهم في دخول الجامعات المدنية المصرية - ولهذا نرى نتائج الإمتحان ينزل مستواها بسبب ضعفهم - وأكثر الناجحين من طلاب الأزهر الذين حصلوا على الثانوية الأزهرية - ومن المصلحة أن ينشأ معهد خاص بطلبة الثانوية العامة يقوم هذا المعهد بتقويتهم في العلوم الدينية والعربية ويمنحون شهادة تؤهلهم لبعض وظائف الدولة - وبذلك لا يتركون مهتمكين ، بل يرفع من مستواهم لتنفع بهم الدولة في مجال يتفق ومستواهم العلمى - ويكنى الأزهر أن ينهض بطلاب الأزهر في قسم الدراسات العالية :

أهل الأزهر في الميزان :

« وبعد » فهذا شئ من تاريخ الأزهر قديماً وحديثاً - وهذا بيان للعوامل التى حورب بها الأزهر في ظل الاستعمار - وبيان للمعوقات التى وضعت في سبيل قيامه برسالته من طريق الصحف والمجلات وأصحاب الأقلام المأجورة لخدمة الاستعمار وقد أصبح الأزهر أمام هذه العوامل وتلك المعوقات لا يملك من رسالته إلا أن يذكر الناس بمبادئ الدين وبيان معالم الحلال والحرام - يقوم بذلك في مجال الدراسة والوعظ بالمساجد والأندية وما تسمح به الإذاعة - وكل هذا ينطوى في نصف رسالتهم وهى البيان : وليس لهم مجال إلى حمل الناس على الاستقامة وعدم الانحراف بقوة القانون والسلطان : فليس ذلك بيدهم - وما زلنا نتعلق بالهدف الذى أشار إليه سيدنا عثمان بقوله : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

إن مَنْ يدرس هذه الحقائق من عامة الناس يعجزر العلماء إذا عجزوا عن توجيه الناس المنحرفين وحملهم عملياً بطريق القوة والسلطان - وكثير من الناس كلماً رأوا منكراً ولمسوا في المجتمع انحرافاً أطلقوا ألسنتهم باللوم على العلماء وكأنهم المسئولون وحدهم ، وكأنهم مطالبون بتنظيم حال الناس في بيوتهم ، مع أنهم لا يملكون إلا ما هم قائلون به من إرشاد الناس إلى مبادئ دينهم بالحسنى في المعاهد والكتليات والوعظ في المساجد والأندية ، لا يملكون إلا أن يقولوا للناس هذا حلال وهذا حرام والآن وقد أوضحنا للناس موقف الأزهر وواجب العلماء نحو هذا المجتمع - وأنهم لا يملكون إلا العمل بنصف الرسالة وهي الإرشاد والتوجيه دون التنفيذ بحكم السلطان والقانون ها نحن أولاء قد وضعنا أهل الأزهر في الميزان ليحكم الناس لهم أو عليهم - وبعد أن يعرفوا مراتب المسئولية الشرعية وقد ذكرنا مراتبها الأربع فيما سبق .

وينبغي أن يعرف الناس أن رسول الله - ﷺ - مع قوة حجته وعلو أسلوبه في البيان والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة لم يُغْنِهِ ذلك عن استعمال عامل القوة والسلطان .

سؤال وجواب : وبمناسبة هذه الظروف التي نحن فيها وبُعْدِ حالة المجتمع الحالي عن صفات المجتمع الأول الإسلامي ، سألتني غيور على دينه في هذا المقام فقال :

لماذا لم يقيم العلماء وعلى رأسهم الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر فيطالبوا في نُصْحٍ وإرشاءٍ بإلغاء تلك القوانين التي تخالف مبادئ الدين الإسلامي حتى لا تقف عقبة في سبيل أدائهم لرسالتهم فكان جوابي بِمِآلِهِ وَمَا عَلَيْهِ فيما يأتي :

تِلْكَ أُمْنِيَّةٌ ، لِنَمَّا تَتَحَقَّقَ فِي ظِلِّ حُسْنِ النِّيَّةِ : والقوانين التي في بلادنا الآن فيها كثير من آثار الاستعمار ، فما زالت المحرمات مُحَصَّنَةً بهذه القوانين مع أنها في بلد إسلامي ولا يزال الربا مُصْنَعاً بالقانون ، والخمر يباع ويشترى مع أنه رجس من عمل الشيطان وما زالت هذه القوانين تحمي المرأة الزانية برضاها في غير بيت الزوجية - فإن كان زناها في بيت زوجها فلا يقيم عليها الدعوة إلا الزوج فقط دون غيره - وأمثال هذه القوانين يجب أن تلغى ويحل محلها القوانين التي تلائم البلاد الإسلامية - واعتقادنا أن القائلين بالأمر يتحينون الفرصة لتغييرها حتى ترحل من بلادنا كما رحل المستعمرون منها بعد ثورة سنة ١٩٥٢ - فإذا قام العلماء بهذا الواجب قبل أن تنتهى الظروف لإلغائها فقد يُسَاءَ بهم الظن ويتمون بالخروج عن النظام القائم في ظل تلك القوانين - وتلك فِتْنَةٌ ، لا تتفق مع أساليب الحكمة واعتقادنا أن نية المسئولين مبنية على إلغائها كما أزالوا المستعمرين من بلادنا على أن الله تعالى لَمَّا أمر نبيّه بتذكير

الناس قال له « فذكرُ إن نفعت الذكرى) ففراهِ لَمْ يُطْلِقِ الأَمْرَ إطلاقاً ولكن قيد الأمر بقوله : إن نفعت الذكرى - إذاً لا بد في التذكير من مَظَنَّة نفعه - وواجب العلماء في هذه الظروف أن ينتهزوا الفرصة المناسبة المُمَوَّنِيَّةَ والله وحده هو المسئول أن يوفق الحاكمين والمحكومين وأن يهيء للجميع الظروف التي تحقق آمال المسلمين - وأولاً وأخيراً نلجأ إلى الله عز وجل أن يُطَهِّرَ مجتمعنا من لوثة المنكرات ويشرح صدر ولاية أمورنا إلى الأخذ بما فيه حفظ ديننا ، وعِزَّةُ أوطاننا ، والله العزة ورسوله وللمؤمنين - والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ۝

وصلى الله على خير الأنبياء وصفوة الأصفياء سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

الحياة المثالية للفرد والجماعة

كما أوضحه الإسلام معالمها

للسيد / الرحمان عبد الحميد هسست
مضرب المربع



الحياة المثالية هي التي يكتمل فيها للفرد وللجماعة وسائل الأمن والاطمئنان والظفر بمطالب الحياة ، ويسعد فيها الإنسان بصاته بخالقه والاتجاه إليه في السراء والضراء ، ويصفو ضميره ، وتخلص نيته . وبذلك يؤمن بالله إيماناً راسخاً يوجهه إلى الخير ، ويستأصل أسباب الشر ، ويبقى الإنسان الانحدار إلى مهاوى الهلاك التي تنجم عن طاعة النفس الأمارة بالسوء وعن الاسترسال في شهواته المادية الجاحمة التي تؤدي به إلى الدمار .

واكتمال العناصر للحياة المثالية ينبغي أن يبنى على الحقيقة الثابتة وهي أن الإنسان يتكون من عنصرين : أحدهما مادي والآخر روحي ، ولا بد من التوافق والانسجام بينهما حتى لا يطغى الجانب المادي الشهواني على الجانب الروحي فيصبح الإنسان كالأنعام أو أضل .

وقد أرسل الله سبحانه إلى البشرية في مراحل نموها المتعاقبة رسلاً مبشرين ومنذرين : ليقوم الناس بالقسط كي يظفروا بسعادتي الدنيا والآخرة ، وليعيشوا في ائتلاف ووثام ، ولينعموا بأوفى نصيب من الخير .

وختمت هذه الرسائل برسالة خاتم النبيين محمد - صلى الله عليه وسلم - وهي التي جمعت كل ما ارتضى الله للإنسانية مما يكفل لها الحياة الراضية .

فإذا فعات الأمم والدول الكبرى قديماً وحديثاً إزاء رسالات السماء وإرشادها ؟ لقد حاولت بعض الأمم قديماً أن تضع لنفسها نظاماً للمدينة الفاضلة وللحياة المثالية كما فعل أفلاطون في جمهوريته واهتم الرومان بوضع القوانين لتنظيم شئون الحياة ، ثم جاءت الثورة الفرنسية فأعلنت الإخاء والحرية والمساواة ، واتجه المفكرون والمصلحون إلى إعلان حقوق الإنسان .

وأخيراً جاءت الدول الرأسمالية فكان هم قادتها الغنى والثراء ، ليتخذوا من ذلك وسيلة للسيطرة على الدول النامية وغيرها واجتذابها إلى السير في فاكها ، وقد لجأت إلى مختلف الوسائل للظفر بأوفر قسط من المال ومن القوة الحربية الطاغية المدمرة رغبة منها في التحكم في مصائر الأمم وفي أقدار الحياة .

فهل كان ذلك موصلاً إلى الحياة السعيدة المستقرة ؟ وهل نعمت الإنسانية بالعدالة والأطمئنان ؟
 إننا في هذه المرحلة من حياة الإنسانية وهي مرحلة يعدها المسيطرون على ثروات العالم
 ومصالحه أنها قد بلغت درجة عالية من المدلية الحديثة ، وأن الأرض قد أخذت زخرفها ،
 وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها : فإذا نجد من علامات السعادة ومظاهر الاستقرار ؟
 إننا نجد العالم غارقاً في خضم من الصراع ومن التهلك ومن التسابق إلى صنع وسائل التدمير
 والهلاك ، ونجد أن ما على وجه الأرض مما خلقه الله لزيئتها ولنفع أهلها إنما يستخدم في تغلب
 القوى على الضعيف وإذلاله واستعباده ، وفي الاستئثار بما أنعم الله به على عباده ، ونجد أن
 المساواة لم تتحقق ، وأن التفرقة العنصرية قد تطاير شررها ، وشب سعيها ، وأن التكتلات
 والأحلاف قائمة على قدم وساق .

وفي هذا الخضم المتلاطم تعيش الأمم على تخوف مما سيحيق بها في القريب أو بعد حين فهل
 آن للناس أن يبحثوا عن أهدى السبل للوصول إلى الحياة الراضية المثالية ؟
 انهم لو رجعوا إلى أنفسهم لوجدوا ما يلبسون في مبادئ الإسلام . فلننظر إلى ما تضمنته
 مبادئ الإسلام من توجيهات بصدد الحياة السعيدة الرشيدة :

لقد نظر الإسلام إلى الإنسان من ناحيتين :

الأولى : أنه جسم وروح وأن الجانب الروحي هو الذي له الشأن الأكبر .

الثانية : أنه مدني بطبعه أي أنه لا يعيش منفرداً .

وقد اتجه الإسلام إلى تهذيب الفرد تهديباً يقوم على الأساس الروحي ، ثم اتجه إلى الأسرة ،
 وبعد ذلك إلى بناء الأمة ، وأخيراً إلى الارتباط بين بني الإنسان جميعاً على اختلاف نحلهم وألوانهم
 وألسنتهم وأوطانهم ارتباطاً ينشر المحبة والمساواة والسلام :

الفرد :

وطريقة الإسلام في تهذيب الفرد تركز على دعائم أهمها ثلاث وهي : الإيمان بالله ، والإيمان
 باليوم الآخر ، والعمل الصالح ، يقول الله سبحانه :

« مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
 لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . (البقرة ٦٢) .

أما الإنسان :

فهو القوة الدافعة والرادعة : الدافعة إلى عمل الخير وإلى طاعة الله ، والرادعة عن الشر وعن
 اتباع الهوى ، وهو الحصن الأمين الذي يأوى إليه الإنسان إذا حزبه أمر ، أو أصابه ضرر .

والإيمان دعامة للقيم الروحية التي هي مبعث قوة الفرد وقوة الجماعة وهو لهذا أقوى عامل
في وحدة الأمة وجمع شملها وتماسك بنائها ، يقول ﷺ :
« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » (١) »

والقرآن الكريم أسلوب رائع في تثبيت العقيدة ، وغرس الإيمان في القلوب ، ذلك أنه يوجه
العقل إلى آيات الله في الكون ، وإلى ما تنطوى عليه النفس الإنسانية ، ويلفت الأنظار إلى مواطن
المعرفة ومنابع العلوم في الكون ، يقول جل شأنه :

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ) .
« الذاريات ٢١ ، ٢٠ »

ولهذا التوجيه التربوي شأن له أثره العظيم في تنمية العقل وفهم ما خلق الله في هذا الكون ،
وغرس الشعور بأن فوق الإنسان إلهاً قادراً يراقب عمله ، ويعلم خائنة الأعين ، وما تخفي
الصدور .

وهذا التوجيه إلى آيات الله يتدرج من المحسوس المشاهد إلى المعقول الذي يصل الإنسان إلى
إدراكه بعد النظر والتفكير العميق ، فهو تارة يتجه بالعقل إلى التفكير في الإبل وفي السماء وفي
الحبال وفي الأرض ، يقول سبحانه :

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ،
وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » .
(الغاشية ١٧ - ٢٠)

وتارة يلفت النظر إلى اختلاف الليل والنهار ، وإلى الفلك التي تجري في البحر ، وإلى ما أنزل
الله من السماء من ماء ، وإلى الرياح وتصريفها يقول جل شأنه :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ
الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ
وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .
(البقرة ١٦٤)

(١) حديث : المؤمن للمؤمن كالبنيان ، أخرجه رواه مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه .

وإن التكرار من الوسائل التربوية في تثبيت الحقائق والمعلومات ، ولذا نجد أن القرآن الكريم يكرر توجيه الحواس أو العقل توجيهها مقروناً بأن الآيات التي يسوقها إنمائها «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» أو «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» أو «لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ» . النحل ١١ ، ١٢ ، ١٣

ومن الطريف الذي يسترعى النظر أن القرآن يراوح في التعبير بين النظر إلى الشيء وهو النظر الحسي ، والنظر في شيء وهو النظر العميق المتأني : كما في قوله تعالى :

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ . . . » .

وقوله سبحانه : « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » الأعراف ١٨٥

ثم يتجه القرآن إلى توجيه الإنسان إلى النظر في نفسه وفي مراحل نموه وفي العناصر التي خلق منها وفي مصيره بعد الحياة الدنيا وفيما منحه الله من نعمة السمع والبصر والفؤاد . يقول سبحانه :

« وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (النحل ٧٨)

وقد حث الإسلام على هذا النظر وعلى التفكير في أسرار الكون وخفايا الوجود ؛ لكي يصل الإنسان بهذا التفكير إلى الاعتراف بالخالق وإلى الإيمان بوحدة إنيته وقدرته ، والإسلام يتابع تعهد الإيمان بالثبوت في القلوب حتى يصبح عقيدة راسخة ، وليتولى ارتباط الإنسان بربه ، ويتجه لتحقيق ذلك دعامتين قويتين وهما :

أولاً : الصلاة التي هي عماد الدين .

ثانياً : ذكر الله الذي به تطمئن القلوب .

ومن هذا يتضح أن الإسلام قد وضع أقوى دعامة للحياة المثالية وهي تنمية الجانب الروحي في الإنسان . وهذا الترابط الروحي بين المسلمين هو الذي يحقق لهم وحدتهم ، ويقوى استمساكهم بحبل الله المتين .

وإن الطريقة التي تجلت في القرآن الكريم لغرس الإيمان في القلوب هي الطريقة المثلى التهديبية والتربوية ، لأنها تجعل الإيمان تابعاً من أعماق النفس ومن صميم الفكر ، وليس ملقاً من الخارج إلقاء سطحيّاً تقليدياً لا عمق فيه ولا جلور يثبت بها غرسه ، ونزهر ثماره .

وإلى جانب ما للإيمان من أثر في التهذيب والتربية هناك أثر آخر وهو أن البحث في الكون والنظر في آيات الله هو أيضاً وسيلة للمعرفة وتنميتها وللتعمق العلمى الذى يرقى بالبشرية . وأن هذا التعمق العلمى إذ يسير جنباً مع العقيدة السليمة ومع الإيمان بالله يجعل استخدام العلوم يتجه إلى الخير ، ويسير في طريق الخلق الكريم .

ولنا بصدد هذا ننصح للمربين وللوعاظ أن يسلكوا سبيل القرآن الكريم في غرس الإيمان بالله في قلوب الناشئين في المراحل المختلفة من حياتهم طبقاً لمقدرتهم العقلية ، وما تحتمله تجاربهم وألا يسيروا في التوعية الدينية بطريقة تلقينية تطوف بالأسماع ، ولا تصل إلى قرارة النفوس .

هذا وإن رباط الإيمان والعقيدة بين الناس هو أقوى الروابط ، وهو أقوى وأمتن من تلك الربوط التى يتحدث عنها علماء الاجتماع كاللغة والجنس والأهداف ونحو ذلك ، فهى روابط أساسها المصالح ولا تلبث أن تزول ، ولا يمكن أن توفر للإنسانية الأمن والاستقرار ، فإن الأساس الوطيد للحياة الصالحة المثالية إنما يبنى من داخل النفس بعده مثل أعلى وهدف روحى أسمى ، والرابطة التى يقوم عليها المجتمع الصالح هى الإيمان والعقيدة والرباط الروحى ، وهو الذى تشير إليه الآية الكريمة .

«وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» . (الانعام ١٥٣)

٢ - الإيمان باليوم الآخر :

وهو عامل قوى في تربية الضمير وفي معرفة المصير وفي هذه الحياة الدنيا ، وفي محاسبة الإنسان نفسه ، وهو خير وقاية من التماذى فى الشر والفساد والظلم والعدوان ، فإن الإنسان إذا تيقن أنه سيبعث بعد الموت ، وأنه سيحاسب على ما قدم من صالحات وعلى ما اجتراح من سيئات ، فإن هذا اليقين سيكون قوة رادعة عن الشر ودافعة إلى الكريم من الخلال .

وقد شك فريق ممن ضلوا السبيل فى البعث بعد الموت والقرآن الكريم يشير إلى هؤلاء ويصور حالهم فى آيات كثيرة . يقول سبحانه :

«وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (النحل ٣٨) ويقول جل شأنه .

«زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَيُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» . (التعابن ٧)

(١٠ - التوجيه الاجتماعى ٤)

ويقول عز من قائل :

« وَقَالُوا أَيُّذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمَسْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا »

(الإسراء ٤٩) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد ساق القرآن الكريم البراهين الحية على البعث من أحداث التاريخ بقول سبحانه :

« أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »

(البقرة ٢٥٩) .

وفي سورة الكهف قصة مفصلة تتجلى فيها قدرة الله في إحياء الفتية الذين أمانهم الله ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين ، وازدادوا تسعا ، ثم بعثهم الله (١) :

ثم ساق البراهين للعقلية مما يشاهده الإنسان ووجه للنظر والفكر إلى مظاهر قدرة الله في الكائنات وفي الخلق والإبداع :

يقول سبحانه في خلق الإنسان ومراحل نموه إلى شيخوخته ثم في إحياء الأرض بعد أن كانت هامدة :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ ، لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقَرِّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ ؛ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ، وَرَبَتْ ، وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ » .

(الحج ٥، ٦، ٧) .

وفي سورة « ق » يسوق القرآن الكريم البرهان الحسى للمنكرين في قوله تعالى :
 « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ
 أَيُّدًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » إلى قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا
 إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضِ
 مَدَدْنَاهَا ، وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ
 تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ،
 فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ
 رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » .^(١)
 (كذلك الخروج) أى كما حيت هذه البلدة الميتة كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم ،
 لأن إحياء الموت كإحياء الأموات .

٣ - العمل الصالح :

وهو أثر لازم للإيمان بالله وبالْحِسَابِ والجزاء فى الآخرة ، لأن من عرف الله - تعالى -
 عرف استحقاقه للحمد وللشكر وللعبادة وللإعتراف بأنه سبحانه مصدر الخير ، وأن ما ينال من
 نعمة فنه تعالى ، وأن ما يعمل الإنسان من خير فلا بد أن يكون له الجزاء عند الله ، فאלله
 سبحانه يقول فى كتابه الكريم :

« وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ
 أَجْرًا » . (المزمل ٢٠) . ويقول جل شأنه :

« وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » (البقرة ٢٧٢) .

والعمل الصالح والحث عليه مذكور فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة : يقول سبحانه :
 « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا
 يعملون » (النحل ٩٧) . ويقول جل شأنه :

« فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ
 بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

ويقول عز من قائل :

«وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ» . (غافر ٤٠) .

هذه هي الدعائم الثلاث التي يقوم عليها تكوين الفرد ، فإذا اكتملت فقد تمت شخصيته
الروحية المنبعثة من اليقين الصادق بخالق الكون ومدبره .

وهو الهادى إلى الصراط المستقيم .

الحياة الاجتماعية :

الإنسان مدنى بطبعه ، فلا يستطيع أن يعيش منفرداً ، بل لا بد أن يكون فرداً فى أسرة ،
وفرداً فى أمة ، ثم فرداً فى المجتمع البشرى .

وبعد وضع الأساس الصالح للفرد وبناء خلقه الكامل يتجه الإسلام إلى وضع الأسس القوية
للحياة الاجتماعية وللا روابط بين الفرد وغيره ، ويتدرج من الأسرة فى محيط الأقارب ثم فى المحيط
الواسع ، ويتجه بعد ذلك إلى الأمة ثم إلى الإنسانية ، ويضع لكل ذلك من التوجيه والإرشاد
ما يكفل الحياة المثالية .

الأسرة :

وهى الخلية الأولى للمجتمع ، وفى رحابها ينمو الفرد ، وتتكون عاداته ، ويرسم الطريق
لسلوكه ، وفى ظلها يقضى فترة الطفولة ومرحلة الشباب ، وفى كنف تقاليدها الخلقية وشعائرها
الدينية تنبت فى قلبه الفضائل ، فإذا أسس بنيانها على التقوى والصلاح ، والنهج السليم كانت أقوى
دعامة للأمة المثالية ثم للمجتمع المثالى .

وقد أحاط الإسلام الأسرة بالرعاية ، ورسم لها الصراط السوى منذ بدء تكوينها ، فوضع
أقوى أساس لاختيار الزوجة ، وذلك لدينها لا لجمالها ولا لمالها ولا لجاهها ، فالدين أهم مرشد
وموجه فى مسيرة الحياة .

والقرآن الكريم يسدى النصيح العام لتحقيق السعادة والاستقرار والهدوء للأسرة فيقول
سبحانه (وعاشروهن بالمعروف) : ثم يضع الحل الرقيق العاطفى لما عسى أن يلب من كراهية
للزوجة فيقول جل شأنه :

«فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا

كَبِيرًا» . (النساء ١٩) .

ويضع أيضاً الحل إذا دب الشقاق بين الزوجين فيقول عز من قائل :

«وإن خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا .»

(النساء : ٣٥)

والقرآن الكريم يعرض لمشكلات الأسرة من شتى النواحي ، ويوجه الإرشاد الذي يكفل لها الحياة المطمئنة .

وحين تنمو الأسرة بالإنجاب يوجه القرآن النصيح من كلا الطرفين الأصول والفروع فيسدى الآباء العظات إلى الأبناء ، وفي سورة لقمان نجد في نصيح الأب لابنه ما هو جدير بالعناية والدرس وهذه السورة تبدأ بالتنويه بهدى القرآن من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالآخرة وبوعده من آمن ووعيد من أعرض ، ثم تذكر السورة طائفة من العظات الحיוية التي ينبغي أن يلقنها الآباء لأبنائهم ففيها أدب جم وخير كثير .

ثم يتجه القرآن الكريم إلى إرشاد الأبناء إلى الاعتراف بفضل الآبوين وبوجوب رعايتهما واحترامهما فيقول سبحانه : «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» ثم يقول

« فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَّانِي صَغِيرًا .»

«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا» . (الاحقاف ١٥)

وبعد رعاية الوالدين يسدى القرآن النصيح بالإحسان إلى ذى القربى ثم إلى الجار القريب والجار البعيد وإلى الصاحب بالجنب .

وجدير بنا لإزاء هذا البناء المتكامل للأسرة المالية أن نتابع رعايتها والحفاظ على مقوماتها ، وذلك بمتابعة التوجيه والإرشاد الذى يقوم به المعلمون فى المدارس والوعاظ فى المحافل والندوات ، وذلك بإلقاء دروس خاصة ملائمة فى الأوقات المناسبة .

والإذاعة لها فى هذا المجال دور له أثره الحميد .

وإذا كنا قد أعددتنا أجهزة ضخمة تقوم عليها وزارة التربية والتعليم لتنشئة الجيل النامي في المدارس وإعداد المدرسين والمفتشين والممتحنين وغيرهم فإن الأسرة في حاجة لا تقل شأنًا عن المدرسة إلى العناية والرعاية ، فإن الأسرة شريكة للمدرسة في إعداد الجيل المثالي ، ومهمتها لا تقل شأنًا وأثرًا عن المدرسة ، فليكن للأمة بها عناية كعنايتها بالمدارس :

الأمة :

بعد إعداد الفرد على أساس من التوحيد ، وإعداد الأسرة على دعائم الوفاق وحسن المعاشرة يسير الإسلام سيراً حكيماً وطيد الأركان في تكوين الأمة وإقامة دعائمها من الأفراد وهم اللبنة الطيبة المزودة بالإيمان وقوة العقيدة وهي خير ما يتكون منه المجتمع الصالح :

ويهتم الإسلام بتكوين الأمة على الأسس السليمة ، ويحيط هذا الاهتمام بأصول ثلاث يتم بها هذا التكوين على أهدى سبيل ، وهي : الحق والخير والائتلاف :

أما الحق :

فهو ميزان العدالة ودعامة المساواة وأساس المعاملة الصادقة بين أفراد الأمة ، وعلى هديه توزن أعمال الناس ، يقول سبحانه : « وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ » : (الأعراف ٨)

ولكن طبائع البشرية قد ركبت فيها الأثرة والأنانية ، والإنسان حريص على منفعة نفسه فلا يرتاح إلا إذا كان الرجحان والكسب في جانبه ، وقد يطفئ إذا لم يجد رادعاً ، أو لم يكن له من نفسه أو من دينه وازع ، ولذلك احتاج الحق إلى قوة تدعّمه وهذه القوة إما روحية وهي الإيمان القوى ، وإما حسية رادعة وهي قوة السلاح وكبح الجماح :

وأما الخير :

فهو مبعث الرحمة والحنان ، ومنبت التعاطف والتراحم ، وقد رغب القرآن الكريم فيه في مواطن شتى ، يقول سبحانه :

« وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . (آل عمران ١٠٤) ويقول جل شأنه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا ، وَاسْجُدُوا ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . (الحج ٧٧)

ويقول عز من قائل « وَمَا تَقَدَّمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (البقرة ١١٠) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية

الاتحاد :

لا جدال في أن الاتحاد قوة وأن التفرق ضعف وأن التنازع ينتهي بالخيبة والهزيمة ، والقرآن الكريم يوضح هذه الحقيقة ، ويحذر من التخاذل والتنازع والتفرق . يقول سبحانه :

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » (آل عمران ١٠٣)

ويقول جل شأنه : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ، وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (الأنفال ٤٦) ويقول عز اسمه : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ، وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . (آل عمران ١٠٥) .

ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »^(١) ويقول - صلى الله عليه وسلم - (من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه)^(٢) .

هذا وإن الإسلام يدعم قوة الأمة وتماسكها ، ويحفظ كيانها بأشياء ثلاثة أخرى ، وهى (١) العبادات الروحية والاجتماعية (٢) ثم بسياسة المال والثروة (٣) والاستعداد الحربى والدفاع : - (أما العبادات الروحية والاجتماعية) فهى الصلاة والزكاة ، فالصلاة عبادة روحية تطهر القلب ، وتنبه عن الفحشاء والمنكر ، وهى أيضاً عبادة اجتماعية لأنها شعار الوحدة بين المسلمين جميعاً مهما تباعدت الديار ، وتناعت الأوطان ، فهم يتجهون إلى قبلة واحدة ، ويقفون فى صلاة الجماعة كالبلين المرصوص وهذا مما يوثق عرا الترابط والاتحاد بينهم .

والزكاة عبادة اجتماعية تشيع التعاطف والتراحم بين أفراد الأمة ، وتذهب ما عشى أن يكون بين الفقراء والأغنياء من جفوة أو غل فى القلوب .

(١) حديث : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحيمهم . . . الخ رواه البخارى عن النعمان بن بشير . ولفظة :

« ترى المؤمنين فى تراحيمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » .

(٢) حديث : من خرج عن الجماعة قيد شبر ، رواه أبو داود عن أبي ذر رضى الله ولفظه : « من فارق

الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » .

وأما السياسة المالية :

فعلوم أن المال هو عصب الحياة للأفراد والأمة ، وأنه وسيلة إلى أداء المطالب والمنافع وهو سلاح ذو حدين : فهو شر إذا تغلغل حبه في النفوس واستعبدها وتهاقت الإنسان على إكتنازه أو على الاستئثار به أو على قهر الشعوب في سبيل الحصول عليه أو على تسليط النار والدمار على الأمم الوداعة لاستنزاف خيراتها والتحكم في مواردها الطبيعية ، كما يفعل الاستعمار الآن في إيقاد نار الحروب وإنزال الكوارث بالآمنين .

ولكنه خير إذا أنفق في سبيل الله وفي مصلحة الأمة والنهوض بها وفي سد حاجات الفقراء والمعوزين وتعميم الاشتراك في الانتفاع به في مطالب الحياة :

وقد نظر الإسلام إلى المال من هذه الناحية لاحية الخير ، فوضع الأمنس القوية والنظم الحكيمة التي تكفل للأمة وجميع أفرادها الحياة الكريمة المستقرة ، ثم يبصر الناس بما يجب عليهم إزاء المال وكسبه ووجوه إنفاقه :

(أ) فالإسلام يعتبر المال وديمة في أيدي الأغنياء ، ويجعل للفقراء حقاً فيه : يقول سبحانه :
« آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » . « الحديد ٧ » . ويقول جل شأنه :
« وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ » .

« المعارج ٢٤ ، ٢٥ »

(ب) ويرغب في بذل المال وإنفاقه ، ويعتبر هذا البذل إقراضاً لله وله الأجر المضاعف يقول سبحانه :

« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » .

« البقرة ٢٤٥ »

يقول جل شأنه :

« إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » .

« التباين ١٧ »

(ج) وبهى عن الإسراف والتبذير وعن الشح والتقتير وبأمر بالقصد والاعتدال، يقول سبحانه:

«وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّخْسُورًا»

«الإسراء ٢٩»

ويقول عز من قائل:

«وَأَتَاكَ الْغُرُبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ، إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا»

«الإسراء ٢٦»

(د) ويعبر الإنفاق في سبيل الله علامة الإيمان الصحيح ، يقول سبحانه

«الَّذِينَ آمَنُوا ، وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ»

«التوبة ٢٠»

(هـ) وفوق كل هذا قد وضع الإسلام العلاج الحذري للفقير والاحتياج وذلك بفرض الزكاة

وهي ركن من أركان الإسلام، ولا تتحقق الأخوة الإسلامية إلا بأدائها، يقول سبحانه:

«خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ، وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» . «التوبة ١٠٣»

أي تطهرهم من دنس البخل والطمع والجشع ، وتزكّيهم أي : تنمّي نفوسهم بالخيرات الخلقية والعملية .

هذا وإن النظام المالى في الإسلام كفيل بنشر الرضا وإشاعة الاطمئنان في قلوب جميع أفراد الأمة وتعميم التراحم ، وقوثيق الروابط الأخوية التي تحقق المحبة والائتلاف بين الناس .
الحرب والدفاع :

الدفاع عن الكيان لا بد منه لتأمين الأمة ووقاية جميع أفرادها وقاية شاملة ، فإن المطامع المنحرفة الجاحمة والنيات الشريرة والاعتداءات الجارفة لا تزال ، وستظل تغلى بها القلوب التي عمرها الشر ، وحقاق بها الضلال .

وقد شرع الإسلام القتال لأسباب وهي :

١ - كف العدوان والدفاع عن النفس وعن الوطن والدود عن العقيدة .

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»

«البقرة ١٩٠»

٢- دفع الظلم ، ويقول سبحانه

« أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظَلَمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ،
الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ . »
الحج ٣٩ ، ٤٠ .

٣- الدفاع عن المستضعفين ، يقول سبحانه :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ . »
(النساء ٧٥)

هذا وقد حث الإسلام على الاستعداد لقتال المعتدين والضاكين يقول سبحانه :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ . »
(الانفال ٦٠)

وحث كذلك على الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس ، يقول سبحانه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ نَجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ
أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) »
(الصف ١٠ ، ١١)

وبحث أيضاً على الثبات في القتال حين لقاء الأعداء ، يقول جل شأنه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .
(الانفال ٤٥)

وفي غزوة تبوك يخاطب الله سبحانه المتباشرين والمتنافسين عن القتال يقول سبحانه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
انْثَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . »
(التوبة ٣٨ ، ٣٩)

بهذه القوة : قوة السلاح وقوة الإيمان عز الإسلام ، ورفعت رايته ، وكانت كلمة الله هي العليا ، وهذا هو السبيل إلى النصر في معركتنا الحالية مع المعتدين :

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » :

(سورة الحج آية ٤٠)

هذه لمحة عابرة بشأن الحياة المثالية التي وضع الإسلام دعائمها للفرد وللأسرة وللأمة ۞

والإسلام فوق هذا يضع أساس الحياة الراضية المطمئنة بين الناس جميعاً على اختلاف عقائدهم وأجناسهم فهو دين الأخوة والمساواة والتعاون والتناصح في الخير ونشر السلام ۞

وفقنا الله إلى الخير وهدانا ورعانا إنه قوي عزيز ۞

1. The first part of the report is a general
introduction to the subject of the study.
It is followed by a description of the
methodology used in the study.

2. The second part of the report is a
description of the results of the study.
It is followed by a discussion of the
results and their implications.

إمتزاج الأزهر بالزيتونة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الفاضل بن عاصم
عضو الجمعية

إن من تتردد على لسانه ، أو على أذنيه ، تلك الكلمات التي لا يزيد بها التكرار إلا قبولاً ورسوخاً : وهي أن الزيتونة أزهر تونس ، أو أن الزيتونة والأزهر صنوان ، أو أن الزيتونيين أزهيون كما يقول الزيتونيون أنفسهم اعتزازاً بالأزهر وتولياً لشيوخته وأبنائه — لتحقيق بأن يغوص على ماتحت هذه الجمل من معان ، ليدرك أن ليست تلك الكلمات مجرد تحيات ومجاملات أو كتابات ومبالغات — حين تبرز له — في معرض الدراسة العلمية المحكمة — معاني التواصل بين المعهدين الجليلين ، فيرى عياناً تلك الصور من المقابلة والمادة التي كانت بها أنفاس من الأزهر ما تزال تسرى وقد اخل جسم الزيتونة ، وأخرى من الزيتونة ما تزال ترجع على الأزهر فتسرى منه اللطف مسرى إلى أن يرى الروحين يمتزجان ، كما قال ابن الرومي : فهناك يحق أن الزيتوني أزهرى ، حقيقة لا مجازاً ، وأن الزيتونة هي الأزهر ، حقاً لا مبالغة حين تبدو حقائق الأرواح والمعاني ، متجاوزة ظواهر الأشباح والمعاني ، حتى يكون للشئ الواحد وجودان وأكثر ، ويصح أن تكون نسبة الشئ من غيره بتلك المنزلة الغربية التي يقول بها الأشعري في نسبة الصفة من الذات : أنها ليست عينها ، وليست غيرها ، أو هي عين وغير في آن واحد باعتبارين :

فإذا نحن أردنا أن نضبط عوامل هذا التواصل ، ونرد مظاهره إلى علمها ، كان علينا أن نرجع أدراج التاريخ مسيرة تقرب من أربعة عشر قرناً ، لنقف على جامع الزيتونة يوم كان أساسه يرسو ، ودعائمه تعلو ، في أوائل القرن الثاني للهجرة على يد بانيه عبيد الله بن الحبحاب للسلولي ، وقد كان والياً على مصر ، ومنها قدم إلى تونس ، بعد أن استخلف ابنه أبا القاسم على مصر (١) — وإذا كانت القاهرة ، يومئذ ، لما تنشأ ، وجامعها الأزهر لما يحدث ، فإن مدينة الفسطاط ، التي هي أم القاهرة ، قد كانت دار ابن الحبحاب ، وجامعها ، جامع عمرو ، الذي هو أبو الجامع الأزهر ، قد كان ابن الحبحاب أمام محرابه ، وخطيب منبره فلا خير أن ابن الحبحاب كان واقفاً على تخطيط جامع الزيتونة بتونس ، وفي ذهنه صورة جامع الفسطاط ، وفي قلبه حنين إليه ، واهتمام به ، وحنين واهتمام بابنه أبي القاسم ، وقد خلفه فيه . ولعل ذرات من الرمال التي كانت

(١) ابن خلدون ١٨٩ ج ٤ بولاق .

بين مصر القديمة وعين شمس ، حيث بنيت مدينة القاهرة فيما بعد ، لم تزل عالقة بأردان في غسان من حيث لا يابه لها ، فتساقطت في عميق الأساس وبقيت هنالك تصل أرض القاهرة بأساس جامع الزيتونة ، وتخلط التربة التي بنى عليها الأساسان : أساس الزيتونة وأساس الأزهر ، من قبل أن يبنى الأزهر بمائتي سنة ، وكذلك تصرمت السنين التي خلت بعد ذلك اليوم ، وكأنها نهيء برور هذا المعنى من التأخر في الهيكلين ، بعد أن استقر في الأساسين : فكانت صحبة علي بن زياد التونسي لليث بن سعد ، وروايته عنه بمصر ، ثم انتصابه بجامع الزيتونة محدثاً ومدرساً في منتصف القرن الثاني (١) حلقة أولى في سلسلة من الاتصالات العلمية ، ظهرت في مصر القديمة ثم امتدت إلى القاهرة وأزهرها ، وارتبطت بها حلقات كان منها ما هو واضح إشعاعاً ، وأتم ظهوراً : فالإمام سحنون : عبد السلام بن سعيد التوزخي (٢) ، والقاضي أسد بن الفرات ، بعد أن تخرجاً هاجراً في زياد في تونس بجامع الزيتونة ، قد شدا الرحلة إلى مصر : فأخذنا عن ابن القاسم ، وأشهب ، وابن وهب ، وابن الحكم ، وتكونت بذلك المدونة ، فكانت أصل المذهب المالكي ، والعكست الرحلة من القيروان على مصر ، وتتابع العلماء من تونس والقيروان وغيرهما من البلاد الأفريقية ، على الرحلة إلى مصر يسمعون ويهتفون ، مثل : عبد الله بن أحمد التميمي ، نسيب بن الأغلب ، وحمد بن الأشعري ، والقاضي عيسى بن مسكين ، وجبل بن حمود ، وغيرهم من أهل القرن الثالث الذين أخذوا في مصر عن بني عبد الحكم ، ويونس بن عبد الأعلى ، وابن المواز ، على ما فصله القاضي عياض في « المدارك » ومن بعده في كتب الطبقات :

وقامت الدولة للبيدية في أواخر القرن الثالث ، فقامت حركة الصراع بين العلماء والحكام العبيديين ، وكان الاتصال بين علماء تونس وعلماء مصر ، مقبواً أهل السنة ، ولا سيما المالكية بتونس وبمصر ، ومهما الطريق ؛ لتسبق النخبة على العبيديين إلى مصر ، قبل دخولهم إليها وتبهم الثورة عليهم بتونس عند انقضاءهم عنها . وبدأ العبيديون يحاولون إغراء العلماء بموالاتهم ، والسكوت عنهم ، ويعرضون العطايا الطائلة ، فلا يجدون إلا شر الرد ، وصريح المقاومة ولا يجد ذلك إلا شيوخاً وانتشاراً بتونس ، ينال من سطوتهم : ويغري الناس بهم :

نقل عياض في المدارك عن أبي الحسن القابسي : « أن المعز الفاطمي أرسل قبل دخوله مصر إلى أبي إسحاق بن شعبان صلة من مائة مثقال وكتاباً ، فقرض ابن شعبان من الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم وأحرق باقيه في الشمعة أمام الرسول » ورد المائة عليه » .

(١) الديباج لابن فرحون ص ١٩٢ ط السعادة وأعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٣٧ .

(٢) الديباج ١٦٠ و ٩٨ .

وجاء القرن الرابع : قرن أبي عثمان الحداد (١) وابن أبي زيد (٢) والجلباني (٣) والقابسي (٤) وابن شبلون (٥) وربيح القطان (٦) وتأكدت الصلات بين مصر وتونس والقيروان بما كان بين ابن شعبان وابن أبي زيد ، وبين التلباني المصري (٧) وأبي الحسن القابسي وبين أبي بكر الحويكي (٨) وأبي الحسن القابسي أيضاً ، واشتدت الثورة على العبيديين وأعلن العلماء تكفيرهم وتكفير من يتولاهم ، ويزكهم ، وانهبت نار الثورة بمدينة تونس ، على العبيديين ، وعلى أمير القيروان باديس الصنهاجي لموالاته إياهم وطاعتهم ، وتولى أمر أهل تونس في ذلك صالح المدينة وعالمها وعابدها الشيخ محرز بن خلف الصديقي (٩) فكان لفقهاء مصر في وجه بني عبيد مثل ما كان لفقهائ تونس والقيروان ، وأصبح القول المتردد على ألسنة المثقفين في حلق جامع الزيتونة وجامع القيروان وجامع القسسطا قولاً متصادقاً متجاوباً وكان بعضه صدى لبعض ، فكانت حلقات أبي بكر بن نصر ، أبي الذكر التمار ، وأخيه مؤمل وابن الأسواني ، وابن أبي حجرة القرطبي : في جامع القسسطا بمصر القديمة ، وقد ذكرها عياض في الطبقة الخامسة ، صورة من حلقات أبي عثمان الحداد بالقيروان والشيخ محرز بن خلف والشيخ معاوية بن عتيق بتونس : وهكذا امتدت فكرة مقاومة الدعوة العبيدية ، والامتناع عن مطاوعتها ، من المغرب إلى المشرق ، حتى بلغت البلاد الشامية :

ذكر عياض في المدارك ترجمة أبي بكر النابلسي ، شهيد مصر سنة ٣٦٤ هـ : « كان شديداً على بني عبيد حين ملكوا مصر والشام ذاماً لهم ، منفراً العامة منهم ، قالوا لهم ، ونقل عن الرقيق أن أبا بكر « كان يفتي في المحافل باستحلال دم من أتى من المغرب ، ويستنفر الناس لقتالهم » يريد بني عبيد ثم قال عياض : « وإنما سلك في هذا مسلك شيوخ القيروان في خروجهم عليهم . . . ولم يستقر للفاطميين بسبب ذلك قرار ، ففرضت ثورة تونس على خليفتهم المعز بن باديس الصنهاجي أن ينقض طاعتهم حتى فعل (١٠) وتتابعت مظاهر التمرد عليهم ، والاستخفاف بهم في مصر

(١) ترجمته في المدارك من أهل أفريقية من الطبقة الرابعة وفي أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي .

(٢) المدارك أهل أفريقية من الطبقة السادسة والديباج ص ١٣٦ ط السعادة وأعلام الفكر الإسلامي .

(٣) المدارك أهل أفريقية الطبقة السادسة والديباج ص ٨٦ ط السعادة .

(٤) المدارك أهل أفريقية الطبقة السابعة والديباج ص ١٩٩ ط السعادة .

(٥) الديباج ص ١٥٨ ط السعادة .

(٦) المدارك أهل أفريقية الطبقة الخامسة وشجرة النور ١٦١ .

(٧) المدارك أهل مصر من الطبقة الخامسة . (٨) المدارك كذلك .

(٩) المدارك أهل أفريقية الطبقة الثامنة .

(١٠) المؤنس لابن أبي دينار ص ٦٥ ط تونس الأولى .

من ولاية العزيز بن المعز الفاطمي (١) ثم ولاية الحاكم واغتياله (٢) بعد أن أعلن الرضوخ لقوة الأمة في الدفاع عن عقيدتها ، وصلابتها في التمسك بسفنها فكتب سجله المشهور بالعدول عن خطة أسلافه في إكراه الناس على اتباع نحلته بقول فيه : « مضى الأمل بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه ، بطوى ما كان فيما مضى ، فلا يلشر ، ويعرض عما انقضى ، فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر ، من إجراء الأمور على ما كانت عليه في الأيام الخالية : أيام آبائنا (٣) » . ثم كانت ولاية الظاهر الذي بدأت الدولة تنضع في مدته ، إلى أن انتهى حكمهم الحقيقي في ولاية المستنصر واستبداد بدر الجمالي بأمرهم ، وتلاشى سيادتهم في ظلمة العدوان الصليبي (٤) . كل هذا يكشف لنا عن حقيقة وقع الحكم العبيدي من الأمة الإسلامية ، في تونس وفي مصر وهرنا أن العداء الذي خرج العبيديون من تونس مشيعين به قد تلقوا به في مصر ، كما يرينا أن جامع الزيتونة بتونس قد كان له أثر واضح في إشاعة ذلك العداء .

فلذا كان العبيديون هم الذين بنوا الجامع الأزهر ، فينبغي أن يلاحظ أنهم وإن بنوه بأيديهم فإن روح الأمة التي بنى بنو ظهرانها ، وفتح في وجهها فأقبلت عليه ، لم تكن تدين لبني عبيد بولاء ، ولا نضمر لهم ودا ، ولا نخفي عنهم نقمة وأن روح العقيدة الإسلامية الخالصة ، هي التي حفت بالأزهر ، وعمرت رحابه ، والتزمت أركانه ، فيبدو من وراء هذه الملاحظة أن الروح التي كانت تعمر الزيتونة بتونس وجامع القسطنطين في مصر ، هي الروح التي ملأت الأزهر وإن كانت السلطة التي أمرت بنائه نابعة عن تلك الروح ، لنستنتج من ذلك كله : أن الإخاء قد كان تاماً وثيقاً بين جامع الزيتونة والجامع الأزهر من يوم أنشئ الأزهر ، إخاء كان في الباطن والروح ، وإن لم يبد في الظاهر والشكل ، بقي الأزهر وفياً لروح العابدين العاكفين فيه ، مزوراً عن روح الحاكمين المباشرين به .

وكذلك أقام بنو عبيد بالقاهرة ما أقاموا ، وزال ملكهم عنها بعد استقراره فيها مائتي سنة وخمس سنين من دخول المعز إليها سنة ٣٦٢ هـ إلى وفاة العاضد سنة ٥٦٧ هـ فبقيت القاهرة بعدهم ، وبني جامعها الأزهرى كما قال أبو العلاء :

تفنى الملوك ومصر بعد فقدم مصر على العهد والإحساء إحساء
وكأنما خططوا القاهرة لغيرهم ، وأسسوا الأزهر كما التقط آل فرعون موسى ليكون لهم
عدواً وحزناً ، فخطصت القاهرة للروح التي كانت ناثرة فيها طيلة القرنين على بني عبيد وناقمة
على حكمهم .

(١) خطط المقرئى ص ١٦٧ ج ٢ وما بعدها ط المليجي بالقاهرة .

(٢) المقرئى ج ٤ من ص ٦٨ حتى ص ٧٤ المليجي بالقاهرة .

(٣) ابن خلدون ص ٦٠ ج ٤ بولاق .

(٤) المقرئى ج ٤ ص ٤٩ ، ص ١٩٣ ط المليجي .

وقام حكم السلطان صلاح الدين على معنى من التوافق مع روح الشعب الذى كان يعمر القاهرة ، واتسق الأمر بين الدولة والأمة والأزهر ، وعاد التواصل والامتزاج بين الأزهر وجامع الزيتونة ، وقد أفلت الأزهر من اليد التى كانت آخذة بخناقته تصده عن ذلك الامتزاج ، فعادت الدراسات بالقاهرة سيرتها الأولى التى كانت عليها قبل الدولة العبيدية ، وأنشئت المدارس الصلاحية والخوانق ، وانتظمت الدراسة العلمية على الخطة الجامعة بين السنة والكلام والفقه والتصوف ، وهى الخطة التى درج عليها ، منذ القرن الرابع ، الأشعرى ، والماتريدى ، والباقلانى ، وإمام الحرمين ، والقشبرى : يجمعون بين أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل والحنيدى ، وهى التى برزت واضحة مستعلنة فى حكمة الغزالي وبخاصة فى كتابه « إحياء علوم الدين » .

وكالت المدارس التى أنشأها صلاح الدين فى مصر على مثال المدرسة النظامية فى بغداد ، والمدارس التى أنشأها الملك العادل نور الدين فى دمشق . أما الذى أنشأه العبيديون بمصر فلم يكن يعدو مجالس مرتبة فى الجامع الأزهر وجامع القسطاط ، وكان يظلمها حكم الدولة ، ويتحين لها اجتماع الناس يوم الجمعة (١) وأكثر ما يلقاه الناس بالأعراض ، كما أعرضوا عن أمثالها قبل فى تونس وفى القيروان وفى مصر القديمة نفسها فقيام الدولة الأيوبية قامت سوق العلم بمصر ، فى النصف الثانى من القرن السادس . فعمرت المدارس ، وتوفر فيها الشيوخ والطلاب ، وانتظمت حلق العلم فى جامع القسطاط ، وشاع الفقه على المذاهب الأربعة ، وسارت الدراسة فى العلوم على المناهج المتصلة بتلك المذاهب .

ولكن الجامع الأزهر قد اعتراه كسوف امتد إلى أواسط القرن السابع ، فلم يكن لهذه الحركة العلمية فيه مجال . وطال كسوف الأزهر قرناً كاملاً ، إذ لم تقم فيه الجمعة إلا سنة ٧٦٥ هـ أيام الملك الظاهر بيبرس وبدأ من يومئذ يستعيد مجده ، حتى انتظم أمره ، وعلا شأنه فى منتصف القرن الثامن على يد الأمير بشير الجامدار فى عهد الناصر بن قلاوون (٢) وهنا ينبغى أن نعود إلى جامع الزيتونة بتونس ، لنستعرض ما أتى من الأطوار عليه فى هذه الثلاثة القرون التى امتدت من خلع تونس سلطان العبيد إلى أن خرج الأزهر من محنته فى منتصف القرن السابع ؛ لئرى أوجه التلاقى بين وضع جامع الزيتونة والجامع الأزهر ، ذلك التلاقى الذى هياً لما تحقق بينهما من الامتزاج .

كان جامع الزيتونة منبع الثورة التى خرجت بها البلاد الأفريقية عن حكم العبيديين فى أيام المعز بن باديس الصنهاجى بالقيروان ، والمستنصر الفاطمى بالقاهرة . وقد تم الانتصار

(١) المقرئى ج ٤ ص ٤٩ ، ص ١٩٣ الملىجى .

(٢) المقرئى أيضاً ج ٤ ص ٥٣ .

لثورة سنة ٤٤٠ هـ وانقطع الدعاء للفاطميين من منابر البلاد الإفريقية ، وأحرقت بنودهم ومحى اسمهم من الطراز والسكة (١) وجاء خطاب الخليفة العباسي من بغداد بتقليد المعز بن باديس ولاية إفريقية . وأعقب ذلك زحف العرب الهلالية ، فسقطت القيروان ، وخربت ، وجلا عنها المعز وآوى إلى المدينة . وانتشر الاضطراب في البلاد ، وقامت إمارات الطوائف : في صفاقس ، وسوسة ، وقابس ، وقفصة ، وبنزرت ، وطبرقة ، والكفاف ، وغيرها ، أما مدينة تونس فقد خلعت طاعة المعز ، وقرر أهلها الانضمام إلى ملك الفرع الصنهاجي الآخر الذي كانت عاصمته قلعة بني حماد ، جنوبي بجاية ، وقد كان ملوكه السابقين إلى نبذ طاعة العبيديين في أوائل القرن الخامس ، المتنفذين مع مدينة تونس على ذلك : فتوجه وفد من مشيخة مدينة تونس إلى بجاية ، ولقوا ملكها الناصر بن علناس بن حماد ، فولى بإشارتهم على مدينة تونس أحد أبنائها - فيما يظهر - وهو عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان (٢) فقامت به في تونس دولة أساسها الشورى ، وعمادها إسناد الأمر إلى أهل المدينة ؛ لتدبير حمايتها من هجمات القبائل ، ومن غزوات الولاة وعظم شأن بني خراسان ، وسما مظهر ملكهم بتونس ، وكان لعلمائها عندهم منزلة مرعية ؛ فكان أهل تونس وبخاصة علماءوها ، وهم أهل جامع الزيتونة ، في عزة ونفوة وظهور أمر ، إلى أن مضى الثلث الأول من القرن السادس ، إذ امتدت إليهم يد أمير بجاية ، ثم كانت الطامة الكبرى باحلال النصاري الترمالديين أصحاب صقلية السواحل الشرقية للبلاد الإفريقية ، فتحركت الثورة من جديد ، للاستعداد لمقاومة الاحتلال الأجنبي ، وانعكست روح الثورة على المدينة ، فتقاتل ربضاها : الجنوبي ربض باب الجزيرة ، والشاهي ربض باب السوق إلى إن دخلها عبد المؤمن بن علي سنة ٥٥٢ هـ ، ثم استنقذ جميع البلاد الساحلية من المغيرين الافرنج ، واستنقذ بقية البلاد من أمراء الطوائف ، ووحد البلاد المغربية كلها في ملكه الذي امتد من الأندلس إلى الحدود المصرية (٣) .

و. مقام مدينة تونس في هذه الأحداث المتسلسلة : من الثورة إلى الاستقلال وازدهار العمران في ملك بني خراسان ، إلى الاستعداد للدفاع الزمان وانطلاق عبد المؤمن بن علي منها لتحقيق ذلك القصد سنة ٥٥٥ هـ بفتح المهديّة بهذا وبما يضاف إليه من خراب القيروان وخلاتها وتشتت

(١) ابن خلدون ص ١٥٩ ج ٦ بولاق .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٥ وما بعدها بولاق .

(٣) ص ١٦٣ نفس الجزء .

علمائها ، وهي التي كانت وحدها تسمو على تونس بين أمصار البلاد الأفريقية ، كانت تونس بمجموع هذه الاعتبار قد تهيأت لأن تصبح عاصمة البلاد الأفريقية ، وأن يصبح زمام القيادة الدبلوماسية بيد علمائها ، ومركز تلك القيادة جامعها الأعظم جامع الزيتونة . فأكمل لتونس بذلك جميع خصائص العاصمة العلمية كما اتفق أن اكتمل ذلك للقاهرة في نفس تلك الحقبة من التاريخ بقيام دولة الأيوبيين ففي صدر القرن السابع كانت للبلاد الأفريقية قد ازدهرت برد غارات الفرنج الترمانيين ، وصارت تونس عاصمة البلاد باستقرار الدولة الحفصية ، وأصبحت الدولة متوافقة مع عقيدة الأمة ، مستنة سنن دياناتها وصارت خلق الوعظ والتعليم القائمة بجامع الزيتونة متساوية في إقبال للدولة والأمة عليها ، وتنشيطها إياها . ولذلك كان شأن مدينة القاهرة قبل ذلك بنحسين سنة تقريباً : لما ردت عنها الغارات الصليبية ، وقامت فيها الدولة الأيوبية ، وانظم ما كان غير منظم بين الدولة والأمة ، فخرجت القاهرة عن كونها دار الإمارة إلى كونها عاصمة الملة ، وامتزجت بها مدينة الفسطاط ، بعد أن كانت قائمة في وجهها ، وصارت الخلق التي كان الناس يعرضون عنها في الجامع الأزهر لا تختلف عن الخلق التي يقبلون عليها في جامع الفسطاط : كلها خلق سنية ، لا شائبة فيها للأهواء والبدع ، ترعاها الدولة ، ويغشاها الناس غير مكرهين ، ولا وجلين . إلا أن هذا المعنى لم يظهر ظهوره العام في الجامع الأزهر ، وإن ظهر حوله ، فلم يظهر في الأزهر بذاته إلا في منتصف القرن السابع لما جددت عمارته ، وأقيمت فيه الجمعة على مذهب أهل السنة والجماعة ، ورتبت فيه دروس الحديث والفقه (١) :

ولإنها لمقارنة عجيبة تبدو بين المعهدين الجليلين في هذا الصدد بملاحظة أن جامع الزيتونة كان سنياً نائياً عن الدولة فعادت الدولة إليه وأن الأزهر كان للدولة نائياً عن السنة فعادت إليه ، فتوافق الجامعان في المال ، وإن اختلفا في المسلك ، فجاءع الزيتونة لما قام الأزهر في منتصف القرن السابع برسائله العلمية السلية ، قد كان قائماً على تلك الرسالة نفسها ، شديد الساعد في الانضطلاع بها فالتحمت بذلك الصلات بين الجامعين ، وزاد في تأكيد اللحمة تشابه المناهج العلمية ، وتقارب الأساليب التدريسية ، والاتحاد في أكثر مواد الدراسة ، والتفاهل المطرد بين شيوخ المعهدين : أخذاً وعطاء :

فالمذهب المالكي بعد أن انقطع علماءؤه مع الدمار المصرية ، في أواخر القرن الرابع تحت

حكم الفاطميين ، بدأ يعاود منزلته في أواخر القرن السادس (١) بمن رحل إلى مصر من الأفارقة
والأندلسيين والصقليين الذين رفعوا لواء المذهب المالكي فيها من جديد ، مثل أبي محمد التونسي
ومحمد بن الفرع القروي الطليطي - وقد ذكرهما عياض في المدارك ، ومثل أبي بكر الطرطوشي (٢)
ومحمد بن مسلم الصقلي المازري (٣) وابن الحكار العقلي (٤) وغيرهم : فشاعت بذلك الكتب
المغربية ، ومناهج الدراسة الأفريقية والأندلسية ، مثل المدونة ، وتهذيبها ، وكتب ابن أبي زيد ،
وكتب أبي الوليد الباجي ، وانبعثت في أصول الدين وأصول الفقه طريقة الأشعرى ، والباقلاني
ولإمام الحرمين ، والغزالي ، والمازري ، وتوصلت بذلك المذاهب السنية ولا سيما المذهبان
المالكي والشافعي وكان لشيوع دعوة الغزالي إلى وصل التصوف بعلوم الشريعة ، أثرها في
تقريب المحدثين والفقهاء والمتكلمين من الصوفية ، وتأثر هؤلاء بهؤلاء ، تأثراً ظهر في طريقة
الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشر في المغرب كله بأبي مدين وأصحابه ، ثم تأصل بتونس في
طريقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي التي أوصلها هو وأصحابه إلى مصر ، وعم انتشارها من تونس
ومن مصر غرباً وشرقاً ،

فهذه الأمس هي التي كانت قوام طريقة التخرج في مصر وتونس على السواء ، عليها مضى
القرن السادس ، وعليها سار القرن السابع حتى مقتصفه لما قامت الدراسة في الجامع الأزهر ،
واستمرت - عليها مناهج الدراسة في الأزهر بقية القرن السابع والقرون بعده .

فكانت الدراسات بالأزهر وبالزيتونة طيلة هذه القرون ، تسير على منهج واحد ، وتعتمد
مادة من الكتب مشتركة ، وسنداً من العلماء متحدداً : فيهم المصريون ، وفيهم الأفارقة وفيهم
غير المصريين وغير الأفارقة : من الأندلسيين والمغاربة ، أو من الشاميين والعراقيين والأعاجم
وعلماء الروم .

وكان يسمو بهذا المعنى من التواصل ، وينميه تعاقب الأعلام الذين يعلو صيتهم وتبرز آثارهم
جيلاً بعد جيل ، من أهل المعهدين الجليلين فيقبل أبناء المعهد الآخر على الأخذ عنهم : مباشرة أو

(١) شجرة النور ص ٩٣ .

(٢) ترجمته في الديباج لابن فرحون ص ٢٧٦ ط السعادة وفي وفيات الأعيان لابن خلكان " محمد " .

(٣) ترجمته في نيل الابتهاج هامش الديباج ص ٢٢٧ ط السعادة .

(٤) من شراح المدونة ترجمته في شجرة النور الزكية رقم ١٢٥ .

بالأجازة ، والاعتناء بكتبهم : تدریساً ، أو شرحاً ، أو تعليقاً ، حتى أصبحت أسماء الرجال والكتب ، التي هي قوام المناهج التدريسية في أحد المعهدين ، هي التي هي قوام المناهج التدريسية في المعهد الآخر .

فقد طلع فجر القرن السابع والمدارس قد ظهرت بمصر (١) واتسع إليها نطاق التدريس بعد أن كان مقصوراً على المساجد ، وكان إنشاء المدارس الأولى بمصر في القسطنطينية حول جامع عمرو . فهناك أنشئت المدرسة الصلاحية ، والمدرسة القمحية فكان فيها مدارس أنشئت للفقهاء المالكية مثل القمحية ، وكانت الدراسة فيها بالاعتماد على أمهات المذهب المالكي المشهورة : من كتب العراقيين والإفريقيين والأندلسيين ، ومن بينها كتب ابن أبي زيد والقابسي والمازري وابن بشير وغيرهم من أبناء البلاد التونسية . يشهد لذلك ما ذكره ابن فرحون في الديباج في ترجمة أبي محمد ابن شاس (٢) المتوفى سنة ٦١٠ هـ أنه كان مدرساً بالمدرسة المجاورة للجامع العتيق ، مع ما ورد في كتاب الجواهر الثمينة لابن شاس من اعتماد على ابن أبي زيد ويسميه الشيخ ، وابن بشير ويسميه أبا الطاهر ، والمازري ويسميه الإمام أبا عبد الله ، زيادة على أمثال أبي الوليد الباجي ، وابن رشد ، وابن العربي ، من الأندلسيين وعهد الوهاب والأبهري ، وابن القصار ، من العراقيين :

فلما ظهرت المدارس بتونس في أوائل القرن السابع ، كانت الدروس فيها ، وفي حلقها بجامع الزيتونة ، سائرة على نفس ذلك المنهج ، ومعتمدة نفس تلك الدواوين . زيادة على ما كانت تتلاقى فيه المناهج العلمية بين مصر وتونس ، في الفنون الأخرى غير الفقه المالكي ، من الحديث والأصول والتصوف ، وفنون العربية ، مما زاد له تأكيد الصلات ، وقوة الامتزاج ، ورواج الأخذ والعطاء ، طرداً وعكساً ، بين المراكزين .

فقد ظهر في ذلك القرن في مصر العلامة ابن دقيق العيد ، والإمام عز الدين بن عبد السلام والحافظ المنذري ، فصربت سمعهم إلى تونس ، وأخذ عنهم من رجال الزيتونة مشاهير منهم أبو يحيى بن جماعة التونسي أخذ عن ابن دقيق العيد (٣) والقاضي أبو القاسم بن زيتون أخذ عن المنذري وعن عز الدين بن عبد السلام (٤) والقاضي عبد الحميد بن أبي الدنيا أخذ عن عز الدين

(١) المقرئ ج ٤ ص ١٩١ وما بعدها ،

(٢) الديباج ص ٤٠ السعادة بمصر ،

(٣) شجرة النور الزكية رقم ٧١٤ .

(٤) الديباج ص ٩٩ ط السعادة القاهرة .

ابن عبد السلام (١) وظهر في تلك الحقبة بتونس الإمام النحوى أبو الحسن بن عصفور ، وظهر كتابه « المقرَّب » في النحو وكتابه « الممتع » في التصريف ، وغيرها من كتبه فطار صيتها إلى مصر ، وتلقاها عنه بتونس الشيخ أبو حيان ، فزوجها في مصر والزماها وهو الذى اختصر المقرَّب (٢) ووفد على مصر الإمام الصوفى الشهير أبو الحسن الشاذلى بطريقته التى كان قد أسسها بتونس مع أواخر القرن السادس وفيها ربي أصحابه ، ولقن أحزابه وكان له مجلس بجامع الزيتونة ، ثم تردد هو بنفسه على مصر وأخذ عنه فيها وصارت الإسكندرية المركز الثانى لطريقته واستقر بها خليفته أبو العباس المرسى ، وعنه أخذها ابن عطاء الله وانتقل بها إلى مصر ، واشتهرت الطريقة الشاذلية في مصر ، وانتشرت منها انتشارها الشرقى كما انتشرت انتشارها الغربى من تونس (٣) :

وكذلك استمر هذا التواصل المطرد المنعكس بين القاهرة وتونس يزيد ثباتاً وتوثقاً بآبى الحاجب ، والقراقى ، وابن جماعة ، إذ كان من الآخذين عليهم : أبى راشد ، أخذ عن القراقى (٤) وابن جابر الوادناشى ، أخذ عن ابن جماعة (٥) وناصر الدين الزواوى ، أخذ عن ابن الحاجب . الذى نشر مختصره الفرعى في أفريقية والمغرب (٦) وإبراهيم التنسى المطماطى ، أخذ عن القراقى .

وقابل ظهور هؤلاء بمصر أن ظهر بتونس أمثال ابن هارون الطائى ، وابن الغماز ، والتجالى وابن هارون الكنانى ، وابن عبد السلام ، فاعتمدوا كتب المصريين ورووا عنهم ، ورووا عن المتخرجين بهم ، مثل ابن زيتون ، وابن راشد ،

وكان في القرن السابع ، والذى بعده للرحالين المشاهير ، الذين رحلوا من تونس إلى مصر أثر في إشاعة أسماء الأعلام من القطرين ، كل في القطر الآخر ونعني هؤلاء أمثال ابن جابر الوادناشى ، صاحب الفهرس المفصل الممتع الذى يوجد مخطوطاً بالأسكوريال ، جمع فيه تراجم شيوخه والكتب التى أخذها عنهم ، وأسانيدهم فى تلك الكتب إلى مؤلفها ، وبواسطته اتصل

(١) شجرة النور ٤٥ :

(٢) ترجمة أبى حيان في بنية الأمانة للسيوطى (محمد بن يوسف) وكذلك ترجمة ابن عصفور (هل بن مؤمن) .

(٣) الدكتور عبد الحليم محمود الإمام أبو الحسن الشاذلى وطريقته .

(٤) نيل الابتهاج هامش الديباج ص ٢٣٥ ط السعادة .

(٥) الديباج ص ٣١٢ ط السعادة .

(٦) شجرة النور ٧٦٤ وابن خلدون ص ٣٧٦ ج ١ بولاق :

كثير من شيوخ مصر بالتونسيين ، كما اتصل كثير من شيوخ تونس بالمصريين من طريقه مباشرة أو بواسطة (١) ٢ - وابن رشيد الفهرى السبكي المتوفى بفاس سنة ٧٢١ ، صاحب الرحلة الشهيرة التي شملت الأندلس والمغرب الأقصى والقطر الجزائرى والقطر التونسى ومصر والشام والحرمين الشريفين ، فاستعت رواياته ، وكثرت لقاءاته ، وجمع أحاديث ذلك كله فى رحلته الحافلة التى سماها « ملء العيبة بما جمع طول الغيبة فى الوجهة الوجهة إلى الحرمين مكة وطيبة (٢) » وقد جمع فى مشايخه أعلاماً من التونسيين : مثل ابن هارون الطائى وابن زيتون ، وأعلاماً من المصريين : مثل الحافظ المنبرى وابن دقيق العيد ، وتواصلت بواسطته أسانيد هؤلاء ، كما تلاقت فيه كثير من الأسانيد المغربية والأسانيد المشرقية - وخالد البلورى الذى رحل أواسط القرن الثامن بعد أن أقام بتونس ، ودخل مصر ، وجمع من أخبار مشيخته فى القطرين ، وأورد عنهم من فوائد العلوم ولكت الآداب ما طفق به رحلته التى سماها « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق وتوجد منها نسخ عديدة فى مصر وفى تونس وغيرهما - مراجع أيضاً للمدرسين والقضاة والمفتين .

وفى القرن الثامن بلغ التواصل العلمى بين مصر وتونس أوجه ، فتأكد اشتراك المشيخات ، وتبادل الإفادة والاستفادة ، وتناقل التأليف والروايات ، واستمر ذلك ممتداً متسعاً مغرقاً فى القرون الموالية : فكان ظهور الشيخ خليل بن إسحاق ، الفقيه المالكى ، فى القرن الثامن ، وبروز شرحه على مختصر ابن الحاجب ، الذى سماه « التوضيح » ثم بروز مختصره الفقهى الجامع الذى نال إعجاب أهل المغرب ، ممكناً لمصر منزلتها عند فقهاء المالكية بتونس ، كما كان فى كتاب التوضيح أثر ظاهر للمشيخة التونسية فى اعتياده على شراح ابن الحاجب الزيتونيين : ابن عبد السلام وابن هارون ، وابن وليد (٣) وفى المختصر أثر واضح لمقدمى الفقهاء الأفارقة ، مثل : اللخمي ، وابن يونس ، والمطرزى ، وهم ثلاثة من الأربعة الذين بنى على اختياراتهم مختصر خليل ، كما هو مبين فى خطبته .

وما ظهر مختصر خليل حتى أقبل النام عليه بالحفظ والدراسة ، وتعلق الشروح ورسخت مكانته فى دراسات جامع الزيتونة ، رسوخاً لم ينقطع بعد . وشرح مختصر خليل أول ما شرح ،

(١) تقدمت الإجابة على ترجمته فى الديباج ص ٣١١ ط السعادة .

(٢) ترجم له المقرئ فى أزهار الرياض أثناء ترجمة ابن الحكيم فى الكلام على ابن خنيس أواخر الروضة الأولى : روضة الورد ، وقال عن رحلته أنه جمع فيها من الفوائد الحديثة والفوائد الأدبية ، كل قريبة وعربية " وتوجد رحلة ابن رشيد منقوصة فى الأسكوريال ويقوم على تحقيقها ودراستها وفهرستها ابنتا الدكتور محمد الحبيب بن الخوجه .

(٣) تراجمهم الثلاثة فى شجر النور ٧٢٢ ، ٧٣١ ، ٧٣٦ .

في مصر : شرحه القاضي بهرام الدميرى (١) : شرحه الكبير والصغير ، فاقرن الشرحان بالأصل في اتساع السعة ، حتى أصبح بهرام يلقب بين جميع الكتّاب على مختصر خليل ، من بعد ، بلقب « الشارح » ودرس المختصر بتونس وجميع البلاد المغربية ، فكان من أشهر من اعتنى به تدرّساً وشرحاً : العلامة ابن مرزوق الحفيد (٢) وهو تونسي ريتوني ، بالطلب والمجاورة والتدريس ، وتتابع عليه الشراح والدارسون والمعلقون من بعد ، فكان من أصول كتب الدراسة بجامعة الزيتونة ، قروناً متتالية ، ومرجع القضاء والفتوى الذي لا يحيد عنه ، وكان حفظه متناً عن ظهر قلب شائعاً بين الطلبة . وصارت شروحه التي صنفت منه بعد بمصر .

وقابل ظهور خليل بمصر ظهور شيخ الزيتونة وإمامها : ابن عرفة بتونس (٣) واشتهاره بتحقيق الفقه المالكي ، نظراً ونقلاً ، وتصنيفه المختصر الذي قال فيه الأبي : « ما وضع في الإسلام مثله لضبطه فيه المذهب مسائل وأقوالاً مع زوائد مكملّة والتنبية على مواضع مشككة وتعريف الحقائق الشرعية » : فكانت سمعة ابن عرفة وشهرة كتبه بالغة إلى مصر ، ثم كانت رحلته بنفسه ، وأخذ الكثيرين بمصر عنه ، ومنهم الحافظ ابن حجر ، ورحلة طلبته من بعده ، وأخذهم عن المصريين ، وأخذ المصريين عنهم ، ذات أثر في وصل ما بين الطريقتين طريقة ابن عرفة ، وطريقة خليل ، وصلاً ظهر بصورة جلية في شرح ابن مرزوق على المختصر ، إذ كثيراً ما اعتمد في شرح كلام خليل على استظهارات ابن عرفة ، كما ظهر الاتصال بين الطريقتين أيضاً في كتاب الشامل للشيخ بهرام ، كثيراً ما أشار إلى تحقيقات ابن عرفة ، كما نبه على ذلك شراحه (٤) ومن يومئذ أصبح لا يرى شرح مختصر خليل ، ولا حاشية على شرح له ، إلا ومدار التحقيق على كلام ابن عرفة .

وهذا الذي حصل في الفقه المالكي ، في القرن الثامن ، من التواصل الأزهرى الزيتوني قد حصل مثله أيضاً في علوم العربية . فقد ظهر بمصر ، في ذلك القرن ، إمام العربية : أثير الدين أبو حيان ، وقد مر ذكر أخذه عن ابن عصور بتونس ، وجمال الدين بن هشام ، فأظهرا في علم النحو آثارهما الجلية جمعاً وتحقيقاً وحسن تصنيف فكانا فرسي رهان في خدمة العربية مواصلة

(١) ترجمته في نيل الابتهاج ص ١٠١ هامش الديباج ط السعادة .

(٢) ترجمته في نيل الابتهاج أيضاً ص ٢٩٣ .

(٣) ترجمته في الديباج ص ٣٣٧ ونيل الابتهاج ص ٢٧٤ ط السعادة وفي نيل الابتهاج أخذ ابن حجر عنه ينقل

فصريح ابن حجر بذلك في أنباء الفهر .

(٤) الكامل على الشامل للسخاوي مخطوط مكتبتنا .

لطريق ابن مالك ، واتقاناً لأثره ، وكان ما بينهما : من كثرة المخالفة وتراد المباحث مع اعتناء
أبي حيان بابن عصفور ، يضع مباحث ابن عصفور بينهما على بساط المجادلة .

واختصت كتب ابن هشام بالإقبال عليها ، ولا سيما كتاب « مغنى اللبيب » فقد اشتهر وذاع صيته
بالزيتونة منذ القرن الثامن ، في حياة مؤلفه الذى يقول ابن خلدون عنه (١) : « وصل إلينا بالمغرب
لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام
الإهراب فأتى من ذلك بشيء عجيب دل على قوة ملكته وإطلاعه » فدخل مغنى اللبيب فى كتب
الدراسة بالزيتونة من أوائل القرن التاسع درسه الحفيد ابن مرزوق ، وكان قد تلقاه بمصر من
ابن المؤلف الشيخ محب الدين بن هشام (٢) واشتهرت دراسة المغنى والاعتماد عليه ، وقد ألف
الشيخ محمد الرصاع ، فى منتصف القرن التاسع كتابه فى ترتيب آى مغنى اللبيب ، فنوه فيه
باشتهار كتب ابن هشام ، ولا سيما المغنى ، وتتابع العلماء على التسليم بعظيم قيمته مع قديم ، كما
صرح بما يشهد لرواج كتب أبي حيان ، وخصوصاً تفسيره البحر المحيط ، والاعتناء بما فى جامع
الزيتونة واعتماد المدرسين عليه وعلى الزمخشري فى تفسير القرآن (٣) وكان ذلك فى الوقت الذى
يدرس فيه المغنى بالجامع الأزهر : فقد ذكر بدر الدين الدمامينى فى حاشيته على المغنى ، المعروفة
بالخواشى المصرية (٤) أنه قرأ المغنى بالأزهر فى مدة مائة وثلاثين يوماً سنة ٨١٢ هـ .

وكذلك كان القرن الثامن أيضاً ظرفاً للتواصل الأزهرى الزيتونى فى مجال العلوم العقلية والأدب
فكانت شهرة آل السبكي ، بمصر ، حاملة أهل العلوم على الرغبة فى الاتصال بهم ، والأخذ عنهم
كما ترى ذلك فى رحلة خالد البلوى ، وكانت شهرة ابن خلدون فى تونس والمغرب ، ثم رحلته
إلى مصر ، وتصدره للاقراء بالجامع الأزهر (٥) مهياً لأخذ أعلام الأزهر عنه مثل ابن حجر
والمقرئى والأفهمسى ، وزائدة فى ذبوع شهرته ، وشهرة الزيتونة ، وعلمائها بالمشرق .

وجاء القرن التاسع بأعلامه الذين علا بهم مجد الأزهر فكان للزيتونيين تطلع إليهم ، واتصال
بهم ، فظهر الحافظ ابن حجر ، وهو الذى قدم ذكر أخذه عن ابن عرفة وابن خلدون ، فشددت

(١) ص ٤٨١ ج ١ بلاق .

(٢) نيل الابتهاج ص ٢٩٧ هامش الديباج ط السعادة .

(٣) ذكر من ذلك بحقه مع شيخه ابن عقاب فى درسه للتفسير سورة آل عمران قوله تعالى : « شهد الله أنه
لا إله إلا هو » والكتاب يوجد مخطوطاً فى مكتبتنا وفى مكاتب أخرى .

(٤) مخطوط المكتبة العبدلية بتونس .

(٥) ترجمته فى الضوء اللامع للسخاوى رقم ٣٨٦ ص ١٤٥ ج ٤ ط القدسى .

إليه الرحلة من المشرق والمغرب وكان مدرس الأزهر وخطيبه . وقد اتصل به من التونسيين الزيتونيين وأخذ عنه : أبو عبد الله التريكي (١) وأبو الحسن القلصادي (٢) الأندلسي الأصل ، والكفيف ابن مرزوق (٣) وهو كآبيه ابن مرزوق الحفيد ، زيعوني بالطلب وظهر الجلال الحلي ، والسراج البلقيني وغيرهما من الذين حفل بدروسهم وتأليفهم وإسنادهم القرن التاسع ، فكان رجوع كثير من الزيتونيين إليهم ، وأخذهم عنهم ملاقياً بينهم وبين أعلام الزيتونة من أهل أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع ، فقد أخذ الحفيد ابن مرزوق عن الجلال الحلي (٤) وجمع بينه وبين ابن عرفة وأخذ القاضي ابن فرحون المدني ، وهو تونسي الأصل (٥) عن ابن عرفة في حجته (٦) كما أخذ عن السراج البلقيني ، واعتمده في مواضع كثيرة من كتابه « تبصير الحكام » .

وخلف القرن التاسع لمطلع القرن العاشر الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي بمجده العالي في ذبوع التأليف الكثيرة المهمة ، فتأثرت الدراسة في جامع الزيتونة في القرن العاشر باسمه تأثراً قوياً امتد إلى القرون التالية ، وحطت الرحال على كتبه ، وثار تحقيق المباحث من رسالته ، ودارت الروايات على أسانيده وتأثرت الدراسة الزيتونية في القرن العاشر ، بأعلام القرن التاسع من الأزهريين وكتبهم ، فشاع تفسير الجلالين ، وكثير من كتب الحلي ، ولا سيما شرحه على جمع الجوامع ، وشرح العيني على البخاري ، وكتب الشيخ خالد الأزهرى ، مثل التصريح وشرح الأجرومية ، وقد ورد ذكرها كلها في المشيخات والإجازات والتراجم ، كما شاع التحديث في الإجازات بأسانيد شيخ الإسلام زكرياء الأنصاري : آتاً برواية التونسيين عن تلاميذه المصريين مثل رواية الشيخ أحمد بن إبراهيم الأندلسي عن الشيخ زين العابدين البكري عن أبيه عن الشيخ زكرياء ، وآتاً برواية التونسيين عن لقوا الشيخ زكرياء من الفاسيين مثل رواية الشيخ خروف عن سقين العاصمي ، كما في كثير من الإجازات التولوسية ، والمغربية بعمامة ، بسند الشيخ عبد القادر الفاسي المشهور ، وظهر بالأزهر في القرن العاشر أيضاً أمثال الناصر اللقاني ، والبدر القرافي ، والقسطلاني ، وابن نجيم ، فشاعت كتبهم بتونس في القرن نفسه ، ولا سيما شرح القسطلاني على البخاري ، وكتاب المواهب اللدنية له وشرح العلامة الشنشوري ، خطيب الجامع الأزهر على متن الرحيبة في الفرائض .

(١) ترجمته في نيل الابتهاج ص ٣٢٣ ط السعادة وشجرة النور ٩٥٣ .

(٢) نيل الابتهاج ص ٢٠٩ .

(٤) نيل الابتهاج .

(٣) نيل الابتهاج .

(٦) نيل الابتهاج ٣١ .

(٥) وفيات ابن قنفذ .

وكان من الذين طلّعوا بتونس في أفق الزيتونة في القرن العاشر : الشيخ محمد خروف والشيخ محمد مغوش . أما الشيخ خروف فقد رحل إلى مصر ، وأخذ عن الناصر اللقاني ، والشمس اللقاني والشيخ أبي الحسن شارح الرسالة ، بعد أن أخذ عن جماعة من التونسيين مثل الزيدري ، وسليطن ومحمد مغوش وقد شاع الأخذ عن الشيخ خروف في الأسانيد الفاسية بكثير من الشيوخ الأزهرين وكتبهم (١) وأبي المحاسن الفاسي وبواسطة خروف تتصل الأسانيد الفاسية بكثير من الشيوخ الأزهرين وكتبهم (١) وأما الشيخ مغوش فقد نشأ بتونس وعظم شأنه فيها أواخر العهد الحفصي ، ثم خرج إلى المشرق قبل منتصف القرن العاشر ، واستقر بمصر ، وتوفي فيها . وقد انتشرت سمعته العلمية ، في المشرق والمغرب ، وأخذ عنه المشاركة والمغاربة . ومن أشهر المصريين الذي أخذوا عنه شهاب الدين الخفاجي (٢) .

فهؤلاء هم الذين زادوا بتلاواتهم وكتبهم وأسانيدهم ، في تقوية اللحمة وكان انتظام القطرين المصري والتونسي ، في سلك الخلافة العثمانية في هذا القرن ، معيناً على زيادة التواصل بين الأزهر والزيتونة ، كما كان ظهور المذهب الحنفي في تونس ، باستقرار النظام العثماني ، مهماً لأسباب الاتصال بأعلام من فقهاء المذهب وأساتذته بالأزهر ، وممهداً لانتشار كتبهم في تونس ودخولها في مناهج الدراسة مثل كتب ابن نجيم التي كان بعضها متبعة لدروسه بالأزهر مثل شرحه على المنار . وكتب الشيخ حسن الشرنبلالي التي كانت كذلك ناشئة من دروسه في الأزهر .

وبذلك كان كثير من مدرسي الزيتونة في القرن الحادي عشر تلاميذ لأعلام الأزهر : الشيخ إبراهيم اللقاني ، والشيخ عبد الباقي الزرقاني ، وابنه الشيخ محمد ، والشيخ الشبرخيتي ، وشيخ الإسلام محمد الخرشى ، فالشيخ المفتي محمد بن مصطفى كان تلميذ الشيخ إبراهيم اللقاني (٣) والشيخ محمد بن شعبان قرأ على الشيخ إبراهيم اللقاني جوهرته في التوحيد بالجامع الأزهر (٤) وهو الذي أقرأها بتونس ، كما ذكر ذلك متلقيها عنه الشيخ محمد قويسم ، في خاتمة كتابه : « سمط اللآل » (٥) .

(١) ترجمته في فهرس الفهارس ص ٢٧٩ ط فاس وشجرة النور الزكية رقم ١٠٦١ والإسناد عنه في إجازة الشيخ عبد القادر الفاسي .

(٢) أخباره في كتاب المؤنس لأبن أبي ديشار ص ١٥٤ ط تونس الأولى ترجمته في نيل الابتهاج ص ٣٣٦ والشقائق النعمانية ص ٥٢ ج ٢ هامش وفيات الأعيان .

(٣) ذيل يداثر أهل الإيمان لحسين خوجه ص ٧٧ تونس .

(٤) الذيل ص ٨٠ .

(٥) مخطوطة الزيتونة .

وكذلك الشيخ محمد زيتونة (١) والشيخ محمد الصفار (٢) والشيخ محمد العواني (٣) والشيخ أحمد برنار (٤) والشيخ محمد سعادة (٥) والسيد أحمد الشريف إمام دار الباشا (٦) والشيخ علي النوري الصفاقسي إمام القراءات المشهور (٧) والشيخ محمود مقديش الصفاقسي (٨) كانوا كلهم من تلاميذ أولئك الأعلام الأزهرين وبواسطتهم دخلت كتب هؤلاء الأئمة إلى تونس ، وشاعت دراستها ، ولا سيما شروح الشبرخيتي والزرقاني والخرشي على مختصر خليل وشرح الزرقاني على الموطأ ، وشرحه على المواهب ، وتوجد خطوط هؤلاء الشيوخ إلى الآن في المكاتب بتونس : ففي المكتبة العبدلية إجازة الشيخ إبراهيم اللقاني بخطه ، وفي المكتبة العبدلية أيضاً نسخة من شرح الأبى على صحيح مسلم بخطه أيضاً كتبها سنة ١٠١٢ هـ ، وبمكتبتنا نسخة بخط الشيخ إبراهيم من كتاب مغني اللبيب لابن هشام ، وفي مكتبتنا أيضاً نسخة من شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني على المختصر هي أصله الذي بخطه . وفي المكتبة العبدلية جزء من شرح المواهب اللدنية للشيخ محمد الزرقاني ، كانت من أملاك الأمير حسين باشا وقد قبلت بإذنه على نسخة منسوخة من أصل المؤلف ، المكتوب بخطه ، الذي قرأه بدرسه على طلبته بالأزهر في آخر عمود .

وكذلك شاعت الرواية بأسانيد أعلام المحدثين بالأزهر في ذلك القرن : مثل أسانيد الشيخ الطولوني يروي بها الشيخ محمد زيتونة ، وأسانيد الشيخ الشبراوي يروي بها السيد أحمد الشريف (٩) والشيخ علي النوي (١٠) .

وكان للعلامة التونسي محمد زيتونة رحلتان إلى مصر سنة ١١١٤ هـ وسنة ١١٢٤ هـ خلفاً صدي بعيداً وأثراً حميداً ، في توثيق الصلات بين علماء الأزهر وعلماء الزيتونة ، بما عرف أهل الأزهر وعلماء الاسكندرية من فضله وعلمه ، وما أظهر في دروسه ومجالسه ، مما نال ثناءهم ، وجلب اعتناءهم لاسيما درسه في تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ليلة المعراج في رجب من سنة ١١١٤ هـ بجامع ترابانه بالاسكندرية ، الدرس الذي لوه بذكره حسين خوجه في ذيل كتابه بشائر أهل الإيمان (١١) وكان ممن أخذ عن الشيخ زيتونة من علماء مصر المحدث الشيخ أحمد الصباغ الإسكندري ، صاحب التلخيص المشهور .

- | | |
|---------------------------------|----------------------|
| (١) ذيل ١٣٤ | (٢) ذيل ١٢٠ |
| (٣) ذيل ١٠٠ | (٤) ذيل ١٤٠ |
| (٥) ذيل ١٦١ | (٦) شجرة النور ١١٨٨ |
| (٧) شجرة النور ١٢٥٥ | (٨) شجرة النور ١٤٦٢ |
| (٩) فهرس الفهارس ج ٢ ص ٧٩ ط فاس | (١٠) شجرة النور ١٢٢٥ |
| (١١) ص ١٣٤ ط تونس . | |

وكثيراً ما تصدت زحباب الأزهر بطلب الفتوى ، في حوادث تنزل بالبلاد التونسية ، أو قضايا يبدق عمل النظر فيها ، كما وقع سنة ١٠٤٦ هـ في إمارة يوسف داي ، أن وجه سؤال إلى علماء الأزهر في قضية حال تتعلق بتوريث زوجة شهد بطلاقها بعد موت الزوج ، وكتب في (المسألة) رسالة الشيخ عمر ابن علي الفكروني الأزهرى ، وهو تونسي الأصل ، من مدينة سوسة ، وكان قاضياً مالكيّاً بمصر شيخاً لرواق المغاربة بالأزهر - ومن تلاميذ الشيخ سالم السنهورى ، والرسالة موجودة في مكتبتنا بخطه :

وانصلت سلاسل الرواية ، والملافاة ، وتلقى الدروس ، كامل القرن الثاني عشر ، قوية نامية متتالية ، وفيه شد كثير من التونسيين الرحلة إلى الأزهر لاستكمال تخرجهم فيه بالأساتذة الأعلام الذين كالت سمعهم السائرة تجلب إليهم الشادين في طلب العلم من الآفاق ، لاسيما وقد أثرت القرون الماضية في تشابه مناهج الدراسة ، واتحاد الكتب التي يزاوها الدارسون ، ويعتنى بتقريبها والتعليق عليها المدرسون ، والشرح ، والمحشون ، فمختصر خليل ، وكتب القراني ، والبيضاوى ، وكتب ابن هشام ، وشرح الأشموني على الألفية ، وكتب العضد ، والتفتازاني ، وكتب ابن حجر والسيوطي ، والقاضى زكرياء ، وأسانيد هؤلاء الثلاثة الأخيرين ذكراً ، هي التي كان عليها مدار الدراية والرواية ، على السواء ، بمصر وبتونس ، وعليها عكف الطلبة ، وبها تخرج العلماء في المعهدين العظيمين : الأزهر والزيتونة . ففي الوقت الذي أقبل فيه الشيخ محمد بن سعيد الحجري ، الملقب بالنجم الثاني على جامع الزيتونة ، آتياً من قرية أبي حجر ، في الساحل الشرقي التونسي ، كان اثنان من تلك البلاد الساحلية نفسها قد وفدا على الجامع الأزهر : وهما الشيخ محمد سعادة والشيخ عبد الرحمن بن جاد الله البناني . أما الشيخ محمد سعادة فقد رجع إلى تونس مملوء الوطاب ، متين الأسباب ، من دروس الشيخ محمد الزرقاني ، والشيخ أحمد الفقيه ، والشيخ عبد الروؤف الهشيشي ، ومن أسانيد الشيخ على الطولوني ، والشيخ عبيد القرمسي (١) .

وأما الشيخ البناني فقد أقام بمصر ، وكان من أعظم علماء الأزهر وأكثرهم طلبة وأبعدهم شهرة ، ناهيك بشرحه على المحلى ، وتقريراته على شرح التفتازاني على التلخيص .

ولقد كانت الكتب التي اعتنى بها كل واحد من هؤلاء الثلاثة : هي الكتب التي اعتنى بها بقيتهم في الزيتونة وفي الأزهر : الأشموني ، ومختصر السعد ، وتهذيب المنطق . فقد كتب الشيخ أبي سعيد والشيخ سعادة كل منهما ، حاشية على الأشموني . أما حاشية الشيخ سعادة فكانت قبل حاشية الصبان ، ولكننا لا نعرفها إلا ذكراً . وأما الشيخ ابن سعيد ، وحاشيته مشهورة مطبوعة ، فقد كان تدرسه الأشموني بتونس ، وكتابه « حاشيته عليه في مدة تدريس الشيخ الصبان الأشموني

(١) ترجمته في ذيل البشائر ص ١٦٠ ط تونس ونصوص إجازات شيوخه بخطه وعندنا .

بالأزهر ، ووضع حاشيته عليه ، فقد أتم الصبان حاشيته سنة ٩٣ وأتم ابن سعيد حاشيته سنة ٩٧ وكان الاتصال بين الحلقتين ، بتردد الطلبة محققاً ، حتى أن الشيخ ابن سعيد كثيراً ما يجاذب الشيخ الصبان أبحاثه ، ويعرض بطريقته ، وزيادة على اعتماد كل منهما على حاشية الشيخ يوسف ، وتوجد بتونس كتب من ممتلكات الشيخ الصبان عليها خطه يقرب أن يكون هو - رحمه الله - مكن منها بعض طلبته وفي مكتبته نسخة من كتاب النكت للسيوطي عليها تملك الصبان سنة ١١٨٧ وبقيت صلات الود وثيقة بين الشيخ ابن سعيد والشيخ البناني ، والمراسلة بينهما متسقة وهما من قريتين متجاورتين (زينان ، وبوحجر) . ففي ديوان الشيخ ابن سعيد الذي سماه « الفلك المشحون » (١) رسالة من الشيخ البناني إليه بمناسبة سفر والده الشيخ ابن سعيد للحج ومروره بمصر ، يجيبه فيها عن طلبه نسخة من حاشيته على المحلى بأنه سيكتبها بيده ويوجهها إليه فيما بعد ، إلى أغراض أخرى . كل ذلك في أسلوب بليغ من خطاب المودة والتعظيم . وكذلك كان جواب ابن سعيد الذي تضمن ، فيما تضمن من ثناء وتنويه استنجازاً للوعد برسالة حاشية المحلى .

وقد اشتهر اسم الشيخ ابن سعيد بمصر ، واعتنى بكتبه ، مع أنه لم يعمر طويلاً ، حتى إن الشيخ حسن العطار ، في منتصف القرن الثاني عشر اعتمد على حاشيته على شرح الحبيصي على التهذيب وجاذبه كثيراً من مباحثها ، في ما كتب هو أيضاً على نفس الكتاب ، كما صرح بذلك في خطبة حاشيته وفي ختامها .

وقد طبعت الحاشيتان معاً ، كتاباً واحداً ، في بولاق سنة ١٢٩٦ ولم يكن الراحلون إلى الأزهر مع الزيتونيين في هذا القرن الثاني عشر محصورين في البناني وسعادة ، بل غيرهما كثيرون . منهم الشيخ محمد بن علي الغرياني (٢) الطرابلسي الأصل الذي أخذ عن الشيخ محمد بن سالم الحفناوي ، والسيد البليدي ، والشيخ محمد العشماوي والشيخ أحمد العماري ، وبعد زيارة - الحرمين الشريفين ، والأخذ عن أعلام البلد الحرام أمثال الجبال الأخير الطبري ، وتاج الدين القلعي ، وابن عقيلة ، رجع إلى الزيتونة وانتصب للتدريس وكان أستاذاً للأساتذة وبه اتصلت رواية الزيتونة بالأزهريين ، وعنه يروى بتلك الأسانيد الشيخ عمر المحجوب في إجازته شيخ الإسلام محمد بن الخوجة التي في ثلثه (٣) ، ومنهم الشيخ محمد بن حسين الهدية ، صاحب الحاشية على شرح الوراقات فقد أخذ عن الشيخ علي الصعدي والسيد البليدي ، والشيخ الدمنهوري .

وانتصب للتدريس بجامع الزيتونة (٤) وكان يروى عن الشيخ الحفناوي وأجاز بسنده وعنه يروى به الشيخ عمر المحجوب كما في ثبت الشيخ ابن الخوجة أيضاً . ومنهم الشيخ إبراهيم بن علي

(١) مخطوط مكتبتنا الماسورية .

(٢) ترجمته في فهرس الفهارس ص ٢٥٢ ج ٢ (٣) مخطوط بمكتبتنا .

(٤) ترجمته في أخبار أبناء الزمان لابن أبي الضياف ج ٢ ص ١٥ ط تونس .

شعيب الذى روى عن الحفناوى أيضاً ، وعنه روى الموطأ والصحيحان بذلك السند فى جامع الزيتونة ، روى عنه الشيخ حموده إدريس ، الذى حدث عنه الشيخ المحجوب ، كما فى إجازة الشيخ إسماعيل التميمي (١) :

وزاد فى قوة انجذاب الزيتونيين إلى الأزهر فى هذا القرن الثانى عشر أن حفلت مصر بمقدم أساتيد فى البلاد الشرقية بلغت سمعتهم عنان السماء ، يعتبر فى مقدمتهم شهرة وعلو مقام الحافظ محمد مرتضى الزبيدى فقد تسابق الناس للأخذ عنه ، وتزاحوا على مجالس إملائه ، حتى كان القاصدون إلى الحج - ولو من غير خاصمة الطلبة يغتنمون إقامتهم بمصر عابرين لحضور مجالسه الجامعة ويكتب لهم الشهادة بالسمع ، والإجازة ، وبذلك شاعت الرواية عنه ، وانتشر خطه فى الإجازات والأثبات وكتب السنة المقررة عليه : ومن أخص تلاميذه من شيوخ الزيتونة الشيخ عمر بن المؤدب ، والشيخ محمد بن حمودة الصفار ، وأبناء الشيخ الغريانى ، بل إن عامة طلبة جامع الزيتونة فى ذلك العصر يعتبرون طلبة له ، لأنه كتب فى إجازته لأبناء الشيخ الغريانى : كذا أجزت لطلبة العلم الملازمين فى حلقة دروس والدهم وشائر أحبابهم وأصحابهم ممن فيه أهلية التحمل لهذا العلم (٢) « وقد كان الشيخ مرتضى أخذ عن الشيخ الغريانى ، كما أخذ عن الشيخ أحمد ابن عبد الله السوسى من علماء الزيتونة وعن هذا الاتصال المحكم بين الأزهر والزيتونة ، فى القرن الثانى عشر ، تولدت صلات أشد إحكاماً ، وروابط أتم انتظاماً ، فى القرن الثالث عشر ؛ فقد استهل ذلك القرن وسمعة أعلام من الأزهريين قد ضربت ما بين المشرق والمغرب ؛ بكتبهم القيمة التى شاعت فى عصرهم وعم الإقبال عليها : مثل الشيخ محمد بن عرفة الدسوقي ، الذى عظمت شهرة دوومه وأسانيده وكتبه واعتمدت حواشيه ، ولاسيما حاشيته على شرح الدردير على المختصر الخليلي ، التى اعتمدها فقهاء الزيتونة ، فى الدروس والفتاوى والأحكام ، وعلقوا عليها ، وجاذبوا مؤلفها بحوثه ونقوله ، وتحقيقاته فكان شيخ الإسلام أحمد بن حسين ، والشيخ المفتى محمد الشاهد ، وغيرهما من شيوخ المذهب المالكي فى أواسط القرن الثالث عشر ، يعتمدون كلام الشيخ الدسوقي ، ويستندون إليه فى فتاويهم وتحاريرهم ، كما هو ثابت فى الوثائق ومنقول فى الأخبار وكان للطباعة فى القرن الثالث عشر ، ولاسيما فى النصف الأخير منه ، أثر فى سرعة إيصال الكتب وبسط شهرتها فعرفت كتب الشيخ الحضري ، والشيخ على الصعبدى ، والشيخ الباجورى ، والشيخ العطار ، وشاعت فى مناهج الدراسة الزيتونية فقوى بذلك تشابه المناهج بين الزيتونة والأزهر ، حتى لم يبق فرق يذكر ، لا فى المناهج ، ولا فى صورة التكوين العلمى للخريجين . فى الربع الأخير من القرن الماضى كان شيخ الإسلام سالم ابو جاجب (٣) يدرس

(٢) بخطه فى مكتبته .

(١) ترخة فى ذيل البشائر ص ٥٤ .

(٣) شجرة النور ١٦٨٩ .

الأشمونى بجامعة الزيتونة ، درساً اشتهر وشدت له الرحال ، وكان ينتج حاشية الصبان ، ويكثر البحث فيها ويكتب بحوثه وتقريراته ، أو يكتفي طلبته ، وكان الشيخ الأنباي ، فى تلك الأيام نفسه ، يدرس الأشمونى بالجامع الأزهر ، ويكتب على حاشية الصبان . وكان بعض الطلبة يتردد بين المدرسين : مثل الشيخ مصطفى بن خليل ، الآتى ذكره . فكانت المباحث التى تثار فى أحد المدرسين يبلغ صداها إلى الآخر حتى أنه لما طبعت تقارير الشيخ الأنباي على الصبان ، قضى الشيخ سالم العجب من توارد الخواطر ، حتى عدل عن طبع تقريراته ، إذ أصبح غالبها مستغنى عنه بما طبع من تقارير شيخ الإسلام المصرى ، سمعت ذلك من كثير من أساتذتنا تلاميذ الشيخ سالم ، كما سمعت منه شيئاً يرجع إلى هذا المعنى فى أسلوب حديثه الفكه وهو فى العقد العاشر من حياته رحمه الله وانتهى القرن الثالث عشر بما كان من الروابط موصولاً بين الأزهر والزيتونة فى ذات الفقيه الكبير الشيخ محمد عليش ، الذى أخذ عن الشيخ محمود مقديش (١) وروى عن الشيخ محمد بن ملوكه (٢) وعنه أخذ كثير من الزيتونيين منهم الشيخ مصطفى بن خليل وكثيراً ما كانت تعرض المسائل عن الحوادث والأحكام على الشيخ محمد عليش لأخذ فتواه فيها .

وقد كان من أجل الراحلين من الزيتونة إلى الأزهر فى القرن الثالث عشر : الشيخ مصطفى ابن خليل فقد كان أكمل تحصيله بالزيتونة وسعى عدلاً بتونس ، ثم سافر إلى مصر ، فقرأ بالأزهر على الشيخ إبراهيم السقاء ، والشيخ عليش ، والشيخ الأنباي ، وأجازه الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الطهطاوى . ويوجد نص إجازته له بخطه فى دار الكتب المصرية ، ثم رجع الشيخ مصطفى إلى تونس فى أواخر القرن الثالث عشر ، وسعى مدرساً من الطبقة العليا بجامعة الزيتونة ، وعلت منزلته ، وأخذ عنه وتخرج به كثير من علماء النصف الأول من القرن الحاضر .

وإنه ليكنى لإظهار الامتياز الذى اكتمل فى القرن الماضى بين الأزهر والزيتونة الرجوع إلى قوانين التعليم فى المعهدين ، حتى يتبين أن الكتب التى تدرس فى مراتب التعليم الثلاث : الابتدائية والمتوسطة ، والعالية ، إنما كانت متحدة بصفة غالبية ، لا يستثنى من ذلك إلا عدد قليل جداً ، على ما جاء فى الفصول ٣ - ٤ - ٥ من الأمر العالى الصادر بضبط قانون التعليم فى جامع الزيتونة سنة ١٢٦٢ مع مقارنتها بما أنهته أخونا العلامة المرحوم الشيخ منصور رجب من أسماء أشهر الكتب التى تدرس بالأزهر فى كتابه : « الأزهر بين الماضى والحاضر » علاوة على أن الكتب التى كانت تدرس - بجامع الزيتونة وضبطها قانون ١٢٩٢ وهى مائة وخمسون كتاباً يوجد من بينها ستة وأربعون كتاباً هى مصرية أزهرية وكذلك ارتبط القرن الحاضر بالقرن قبله ، إذ انعقدت من القرنين أسباب امتدت من السابق منهما وشدت باللاحق ، فكانت العروة الوثقى .

(١) شجرة النور ١٥٤٤

(٢) شجرة النور ١٥٥٩

نعم « كانت العروة الوثقى لا انفصام لها » الجمعية التي أنشأها السيد جمال الدين الأفغانى ، بعد خروجه من مصر سنة ١٢٩٩ الوثائق الذى شدت به الصلات المتينة بين رجال من علماء الأزهر ، انتصبوا لقيادة حركة الإصلاح فى العالم الإسلامى ، وآخرين من علماء الزيتونة ، ساروا معهم فى ذلك السبيل (١) فيهم للشيخ محمد بيرم ، والشيخ محمد السنوسى ، والشيخ أحمد الوردانى ، واستمر ذلك الاتصال يمثلاً قرننا الحاضر حركات متحدة المصادر ، متشابهة المظاهر . بين الأزهر والزيتونة وزار الشيخ محمد عبده تونس زيارته الأولى سنة ١٣٠٢ وامتزج بعلمائها ثم عاد بعد عشرين سنة وأتى محاضراته القيمة « العلم بطرق التعليم » وكان لمجلة المنار رواج واسع فى تونس وأثر قوى فى إشاعة دعوة الشيخ محمد عبده الإصلاحية . ولا نريد أن ندخل فى صلة هذه الحركة بالأزهر : وما كان بين المنار والأزهر ، مما كتب فيه صاحب المنار كتاباً خاصاً . ولكننا نكتفى بأمرين هامين يتضح بهما ما كان لهذه الحركة من انتساب متين إلى الأزهر ؛ يجعل انتشار دعوتها بتونس داخلاً فى موضوعنا أولهما أن قوام مجلة المنار ، وأعظم مادتها ، إنما كان ما تنشره من تلخيص دروس الشيخ محمد عبده فى تفسير القرآن العظيم ، وهى دروس أزهريّة كانت تلقى فى الرواق العباسى ، وثانيهما أن أهم ما تحدده المنار ، من دعوة الشيخ محمد عبده ، هى دعوته إلى إصلاح التعليم فى الأزهر ، وأقصى ما تقصد إلى تحقيقه هو أن يتولى الأستاذ الإمام أمر الأزهر ، أو أن يكون مشاركاً فيه مشاركة ذات نال ، فكان من هنالك ملشأ الأحداث التى شطرت الأزهر شطرين : بين مناصرين لدعوة الشيخ محمد عبده ، ومعارضين لها . وكان ذلك الانقسام سارياً إلى جامع الزيتونة فنشأت فيه حركة (٢) فكرية قوية شطرت رجاله أيضاً إلى شطرين بين أنصار دعوة الشيخ محمد عبده والمنار وخصومها ، وجعلت أكثر الطلبة من شيعية مفتى الديار المصرية ، ومطالبين بإصلاح التعليم الزيتونى على المبادئ التى طالب بها لإصلاح التعليم الأزهري ، وكانت حركات الطلبة فى الأزهر مثلاً موجهاً لحركات الطلبة فى الزيتونة فلما أضرب الطلبة فى الأزهر سنة ١٣٢٧ لم يتأخر الطلبة الزيتونيون أكثر من أربعة أشهر حتى ابتدأوا المظاهرات والاضرابات ودخلت بذلك الحياة الزيتونية ، تبعاً للحياة الأزهريّة فى طور جديد (٣) .

ولمّا جانب هذا التواصل فى الحركة الإصلاحية ، كان جانب آخر من التواصل الزيتونى الأزهري يتمثل فى ما كان متمثلاً فيه من قبل من البحث العلمى والدراسة لقد استعمر طلبة من الزيتونة يقصدون الأزهر ، وآخرون من الأزهر يأتون الزيتونة وأصبحت الحياة النظامية فى المعهد تمهد لهؤلاء وهؤلاء سبيل الالتحاق بكل من المعهدين باعتبار ما بلغ إليه الطالب من درجة فى المعهد الآخر ؛ وإن من أشهر الأزهريين الذين آووا إلى الزيتونة فاعتبرت له دراسته الأزهريّة : وسمح

(١) فهرس الفهارس ص ٢٨٠ ج ١

(٢) كتاب الحركة الفكرية والأدبية بتونس ص ٤٣ ط معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة سنة ١٩٥٦

(٣) الحركة الفكرية ص ٩٧

له بذلك الاعتبار أن يتقدم إلى امتحان « التطويع » مباشرة بدون أن يتدرج في مراحل الدراسة العلامة المرحوم ، شهيد حركة العلماء المسلمين في الجزائر الشيخ محمد العربي التبسي الذي تخرج بشهادة التطويع عقب رجوعه من الأزهر سنة ١٣٤٠ .

كما استمرت آثار الدروس الأزهرية العليا محل الاعتناء والإقبال من الأساتذة الزيتونيين ، والرواية متصلة الأسانيد بينهم أيضاً .

فكان لشيخ الإسلام عبد الرحمن الشربيني في حياته ، رواج عظيم لكتبه في الزيتونة حتى ان حاشيته على البناني على المحلى على جمع الجوامع كان يدرسها تدریساً شيخ شيوخ الزيتونة يومئذ أستاذنا شيخ الإسلام محمد بن يوسف فضلاً عن أعلام الزيتونة من تلاميذه مثل أستاذنا المحقق الشيخ محمد الصادق القاضي ، كان ذلك والشيخ الشربيني حتى ، وقد علت سمعة تلك الحاشية ، واهتم الناس بها ، وأصبحت مناط البحث والتحليل ، حتى أن اتقان تدريس المحلى كان يقاس في الزيتونة باتقان تحليل الشربيني وتأصل ذلك في مقاييس دروس المناظرات التي يتقدم بها خريجو الزيتونة لنيل منصب التدريس من الطبقة الثانية . وكذلك كان مفتي الديار المصرية الشيخ محمد نجيب معتنى بتجاريره وأسانيده متلقاة من أكفائه سنأً ومقاماً - فقد اجتمع به الشيخ محمد بن يوسف في رحلته إلى مصر والشام سنة ١٣٢٧ وروى عنه ، وحدث بسنده وقد حدثني به - رضى الله عنه - في إجازته إياى المكتوبة بخطه سنة ١٣٤٢ عن شيخ عبد الرحمن الشربيني عن الشيخ إبراهيم السقا عن الشيخ الأمير الصغير عن الشيخ الأمير الكبير

وأخذت سهولة المواصلات ، وتيسر وسائل الحج تنمو بعد الحرب العالمية الأولى ، فتمت معها الاتصالات الأزهرية الزيتونية وكثر سفر شيوخ الزيتونة للحج والعمرة ، وكثرت بذلك زياراتهم للأزهر والتقاؤهم بعلمائه .

وحدثت بعد الحرب العالمية الثانية صور من التلاقى لم تكن تعرف من قبل ، إذ نشأ التواصل الرسمى بين الجامعتين الأزهرية والزيتونية فيما ربطت المواصلات بين الشيخين على عهد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ مصطفى عبد الرازق ، وما اتسق من صور التعاون الرسمى بين الجامعتين حتى أنه لما توفى شيخ الأزهر سنة ١٣٦٧ أعلن شيخ جامع الزيتونة نعيه في الصحف ببلاغ رسمى ، وعطلت الدروس في جميع المعاهد الزيتونية بالقطر بن التونسي والجزائرى وكذلك اتع الأمر في المناسبات المشابهة :

ولأنه ليحق لهذه الحقبة من التاريخ التي اظلمنا أن تفخر بأنها التي بلغت فيها الصالات بين الأزهر الزيتونة أوجها . فقد احتضن الأزهر إماماً من الأئمة الأعلام كان أحد شيوخ الزيتونة العظام وهو الشيخ محمد الخضر حسين ، إذ استقر بمصر ، وأحرز على شهادة العالمية ، وسمى أستاذاً في

قسم التخصص وعين في هيئة كبار العلماء ، ثم سمي شيخاً للأزهر سنة ١٣٧٤ ، فكان خير تاج توجت به الأخوة بين المعهدين في مبلغها الأقصى وذروتها العليا .

ولم تزل مظاهر الاتصال تبرز فيما بين المعهدين متعاقبة فقد سعدت تونس بزيارة معالي الأستاذ الكبير مدير الجامعة الأزهرية الشيخ أحمد حسن الباقوري ، والتف حوله علماء الزيتونة وعظموا مقدمه ، وقد خطب في جامع الزيتونة وقد انتدب غير مرة أستاذاً زائراً للكلية الزيتونية أخو المرحوم الشيخ منصور رجب الذي وافاه الأجل في مدينة تونس في ذى الحجة ١٣٨٤ بعد أن ترك فيها جمهوراً من التلاميذ والأحبة وقد صلى عليه شيوخ الزيتونة صفوفاً بإمامة شيخهم والدنا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور قبل نقل جنازته إلى مصر .

ولم تزل الكلية الزيتونية تعزز بتوالي التداخا لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود الذي كانت زورته الأولى سنة ١٣٨٢ ، واقتبل اقتبالاً رسمياً تحت قبة جامع الزيتونة الأعظم . ثم ترادف فضيلته على الكلية وأبنائها حتى أصبحت مشيخته للزيتونيين لا تضيق عن مشيخته للأزهريين .

فالله يحفظ هذا الامتزاز ، وينميه . ويوثقه . ويذكره . ويجرسه من العوائق ، ويحميه .

حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق

في الحضارة الإسلامية ، وفي حضارة العرب

للاستاذ محمد خلف السداحم

عضو الجمعية



تمهيد

من الظواهر التي تميز العصر الحديث في تفكيره السياسي والاجتماعي الشغاله بمبدأ رعاية الحقوق السياسية والحريات الأساسية للإنسان على الصعيدين الوطني والدولي .

ويتمثل هذا في المجالات الوطنية في وعي الحكوميين بحقوقهم على الحاكمين وثورات الشعوب على رعاتها المستبدين ، وفي ازدياد إدراك الأفراد والجماعات - وعلى الأخص الطبقات التي كانت محرومة في الماضي لحقها في حياة حرة كريمة ، آمنة متحررة من الخوف والذل والجهل والفقر والمرض والاستغلال ، وفي الإصرار على أن تكون الدساتير القومية وثائق أساسية لضمان تلك الحريات ، وفي نفور كل أمة من أي لون من ألوان التبعية لغيرها ، وفي حرصها على حريتها واستقلالها ، واستعدادها للذود عن كيانها بكل مرتخص وغال .

وفي المجالات الدولية تتمثل هذه الظاهرة في اهتمام الأمم المتحدة ومنظماتها بحقوق الإنسان وإنشاء لجنة خاصة ، لرعايتها وإصدار إعلانها والتذكير بمبادئها كلما وقع اعتداء من دولة على أخرى ، أو اضطهاد من أغلبية لأقلية تعيش بينها .

وهناك شبه اعتقاد سائد في الغرب أن إقرار حقوق الإنسان ثمرة من ثمار التطور الحديث الذي سار فيه الغرب ، وأنها كالتكنولوجيا والمخترعات الحديثة بعض هدايا الغرب إلى الشرق وإلى الأمم النامية

في مختلف القارات ، وأنها حصيلة ثورات وحروب وتطورات في نظم الحكم ، وفلسفات ودعوات إلى الإصلاح ، حدثت في الغرب على مراحل منذ عصر النهضة ، وتوجت أخيراً بإعلان حقوق الإنسان الذي أصدرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٨ :

وهدفنا في البحث الحاضر ، أن نناقش هذا الاعتقاد وأن نبرز دور الحضارة الإسلامية في رعاية الحقوق والحريات الأساسية ، وأن نوازن بين موقف حضارتنا والحضارة الغربية من الناحيتين النظرية والعملية تجاه حقوق الإنسان ، وما نقصد إليه في هذه الدراسة الموضوعية - يجالب الإنصاف التاريخي - أن نصل حاضرنا بماضيها ، وأن نزداد - بالفهم الأصيل لثرائنا - اعتزازاً به وثقة بأنفسنا وبحضارتنا ، وبقدرة على أن نساهم في خير البشرية كما ساهم أسلافنا في الماضي .

حقوق الإنسان في حضارة الغرب :

جرت عادة الغربيين المحدثين في دراسة حضارتهم ، أن يرجعوا إلى أصولها الأولى في الفكر اليوناني القديم ، وأن يتبعوا سيرها أيام الرومان وفي العصور الوسطى ، ثم في عصر الإحياء وفي النهضة الحديثة .

(١) وعلى هذا النهج جروا فيما كتبوا عن تاريخ حقوق الإنسان ، فقد رجعوا إلى عصر بركليس في القرن الخامس قبل الميلاد ، حيث قدمت « أثينا » نموذجاً للمدينة التي يعيش فيها المواطنون متساوين ، يتمتع غنيهم وفقيرهم بنفس الحقوق ، ولا يحال بين شخصين وبين خدمة المدينة بسبب فقره أو ضعف مركزه الاجتماعي ، ما دام قادراً على النهوض بهذه الخدمة .

ولكن ديمقراطية « بركليس » - كما أشارت الدراسات السياسية - كانت ديمقراطية محدودة ، تركت العبيد والأجانب خارج نطاق الحرية والمساواة ، وقد قبل الفيلسوف « أفلاطون » وجود أرقاء ، وسلم في غير تخرج بنظام الرق ، هذا إلى أن الديمقراطية الأثينية لم تدم غير زمن محدود ، إذ لم تلبث المدن الحرة في العالم الإغريقي أن فقدت مكانتها ونظمها ، ثم ابتلعت الإمبراطورية الرومانية بلاد الإغريق كلها .

(٢) أما العالم الروماني فقد حدث فيه محاولات لتقريب المسافة بين الأشراف وعامة الشعب ،

والوصول إلى نوع من المساواة أمام القانون ، يعطى أبناء الشعب الحق في الإصهار إلى طبقة الأشراف ، وفي الوصول إلى مناصب الحكم والوظائف الديلية .

ولكن هذه المحاولات انتهت إلى نتيجة سياسية مخزنة : ذلك أن الجمهورية لم تلبث أن أخلت مكانها للنظام الإمبراطوري ، وأخذ القياصرة يكافحون ضد الأشراف ، ولكنهم سرعان ما ألغوا الحريات الديمقراطية . وعندما استقر لهم الأمر ألغوا القوانين التي تقرب بين الأشراف وغير الأشراف وبين الأغنياء والفقراء ، وبالرغم من الصيحات التي قامت بين حين وآخر تنادى بالحرية والمساواة ، فإن التفاوت قد بلغ أقصاه في العالم الروماني ، وكان أفراد الطبقة المستضعفة يعاقبون في قسوة لا يعاقب بها الأغنياء عن الجريمة الواحدة .

(٣) وإذا انتقلنا إلى القرون الوسطى الإقطاعية في الغرب وجدنا أنها كانت تكاد تجهل الحرية والمساواة وفكرة الحق السياسي للشعوب ، وأن نظام الطبقة كان مسيطراً فيها ، إذ كان الناس مقسمين إلى طبقات ، وفي داخل كل طبقة عدة درجات ، وكان الاضطهاد يأخذ أشكالا لا تتفق ومعنى الإنسانية في شيء .

(٤) ولم تخل تلك القرون من أصوات جريئة تندد بالظلم وتنادى بالعدالة ، ولكن البذرة الحقيقية لشجرة الثورة ضد هذه الأوضاع بذرت في القرن الرابع عشر ، حين ظهرت حركة تحرير أرقاء الأرض ، والتمرد ضد الاستبداد وعدم المساواة . ومنذ القرن السادس عشر اشتدت حركات الإصلاح وإحياء التراث القديم ، وثورات النظريات العلمية والأخلاقية والمناهج الفلسفية الحديثة ، وانتشرت كتابات الأدباء والسياسيين والاجتماعيين ، واحتدت المعارك بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، وتجمعت نتائج كل ذلك وآثاره في الثورة الفرنسية ، وتبلورت سنة ١٧٨٩ ، في وثيقة الحقوق الإنسانية « التي نصت على أن الناس يولدون ويظلون أحراراً متساوين في الحقوق ، وأنه يمكن للناس أن يفعلوا كل مالا يضر بالآخرين فلهم أن يفكروا ويتكلموا ويكتبوا وينشروا في حرية وأن للمواطنين الذين تتكون منهم الأمة الحق المطلق في إدارتها ، وأنه يجب العمل دائماً على ضمان حقوق الأفراد من جهة ورعاية المصلحة العامة من جهة أخرى .

(٥) وقبيل الثورة الفرنسية بحوالى خمسة عشر عاماً قامت حرب الاستقلال الأمريكية التي انتهت بانفصال الولايات الأمريكية عن بريطانيا ، واستقلالها عن التبعية لتاج البريطانى ، وتوجت بوثيقة

الاستقلال التي اشتهرت في التاريخ الحديث بما تضمنته من نصوص في الحقوق الإنسانية ،
إذا جاء فيها :

« : : : نحن نوّمن بالحقوق التالية ونعدها بديمية الصدق » :

أ) أن الناس جميعاً خلّقوا متساوين :

ب) وأن الخالق زوّدهم بحقوق لا فكاك لها :

ج) وأن من تلك الحقوق : الحياة والحرية وطلب السعادة

د) وأنه لضمان هذه الحقوق أنشئت الحكومات بين الناس مستمدة سلطانها من رضى
المحكومين :

هـ) وأله إذا انحرف أى نوع من الحكومات ، وأصبح هادماً لتلك الغايات ، فمن حق الناس
أن يعدلوه أو يبطّلوه وأن يقيموا حكومة جديدة على تلك المبادئ ، وأن ينظموا سلطانها على
الطريقة التي تبدو لهم خلائقه أن تحقق أمنهم وسعادتهم :

وأن الناس ميالون - والحزم يقضى بذلك - إلى أن يصبروا حيناً على المظالم العارضة ، ولكن
حين تؤلف تلك المظالم سلسلة طويلة تجعل الناس يعيشون تحت دكتاتورية متعسفة ، فإن من
حقهم - بل من واجبهم - أن يسقطوا تلك الحكومة ، وأن يقيموا حراساً جدداً لتأمين
مستقبلهم - : : : : : » :

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان :

شهد العالم في النصف الأول من القرن الحاضر حربين كبيرتين مدمرتين ، كانت لكلتيهما نتائج
في مصائر الشعوب ، وتفكير ساستها ، وفي محاولة إيجاد نظام دولي يعمل على الحد من عوامل
الخلاف والحروب وإزالة أسباب الشكوى من المظالم التي تقع على بعض الجماعات . وكان أن أنشئت
عقب الحرب العالمية الأولى « عصبة الأمم » وفوض إليها مراقبة تنفيذ الإجراءات التي فرضت ،
في كثير من الدول الأوربية لحماية الأقليات الدينية والعنصرية :

وتمخضت الحرب العالمية الثانية - بما كان فيها من اضطهاد ومذابح وتعذيب وانتهاك لحقوق الشعوب
والأفراد - عن قيام هيئة الأمم المتحدة ، وعن اتجاه إلى ضرورة الاعتراف العام بحقوق الإنسان

وتوفير الحماية الدولية و مؤتمر سان فرانسيسكو سنة ١٩٤٥ ، دعا كثير من المندوبين إلى أن يضمن ميثاق الأمم المتحدة مواد تتعلق بحماية حقوق الإنسان ، ونادى بعضهم بأن يكون هناك إعلان ملحق بالميثاق ينص على هذه الحقوق ، وقد اكتفى في ذلك الوقت بالاقترح الأول ، فضمنت مقدمة الميثاق تأكيد الإيمان بالحقوق الأساسية للإنسان ، ونصت المادة الأولى منه على أن من أغراض الأمم المتحدة تحقيق تعاون دولي لزيادة احترام الحقوق الإنسانية والحريات الأساسية ، وتوفيرها للجميع بلا تفرقة ، بسبب العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين ، وورد مثل ذلك في الإشارات الإضافية في مواد أخرى من الميثاق عاجلت التعاون الاقتصادي والاجتماعي وشئون الوصاية وقد عهد إلى الجمعية العامة القيام بدراسات وتوصيات في ميدان الحقوق الإنسانية ، وفوض المجلس الاقتصادي والاجتماعي في تقديم توصيات لزيادة الاحترام لهذه الحقوق والمحافظة عليها ، وتشكيل لجنة خاصة لرعايتها وإعداد إعلان عام لها للعرض على الجمعية ؛

وقد انتهت اللجنة من إعداد مشروع الإعلان في يونيو سنة ١٩٤٨ ، وأقرته الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة في دورتها العادية الثالثة في ديسمبر مع ذلك العام .

وقد تضمن الإعلان تعريفات لمجموعتين من الحقوق : الأولى الحقوق السياسية والمدنية الرئيسية التي تضمنتها الدساتير ، والثانية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فن الأولى حق الحياة والحرية والأمن من الاعتقال التعسفي والحجز والنفى ، وحق التقاضي أمام قضاء عام عادل ، وحرية الفكر والضمير والاعتقاد ، وحرية الاجتماع وعقد الروابط . ومن المجموعة الثانية حق الضمان الاجتماعي ، وحق العمل ، وحق التربية والتعليم ، وحق المشاركة في الحياة الثقافية للجماعة وحق الاستمتاع بالفنون والإفادة من التقدم العلمي وخبراته .

وقد كان ولا يزال هناك خلاف حول القيمة الإلزامية التي يفرضها ميثاق الأمم المتحدة على الدول الأعضاء في مجال حقوق الإنسان وما إذا كان صدور إعلان الحقوق قد قوى هذه القيمة ؛ على أن الهيئة العامة قد اعتبرت الدول الأعضاء ملتزمة بالعمل على رعاية هذه الحقوق والحريات ، وقضت بإدانة الذين يعتدون عليها ومن ذلك ما قرره الهيئة سنة ١٩٥٣ من أن بعض الإجراءات التشريعية التي قام بها اتحاد جنوب أفريقيا مخالفة للميثاق ولإعلان حقوق الإنسان وما قرره

سنة ١٩٦٨ بإجماع ، لم تشذ عنه إلا دولة كبيرة واحدة - من ضرورة كف إسرائيل عن إجراءاتها
التي تتخذها لتغيير الصفة الشرعية لمدينة القدس العربية ؛

وقد قامت هيئة الأمم وأجهزتها - طبقاً للميثاق والإعلان - بإنجازات في ميادين الصحة
والتعليم ومحو الأمية ، ومساعدة المناطق المنكوبة ؛

على أنه مما يسجل « مع الأسف » أن هذه المبادئ النظرية السامية التي تضمنها الإعلان قد
تعثرت ولا تزال تعثر في التطبيق ، في مجالات الحقوق السيامية والاقتصادية ، وأن بعض
الدول الكبرى التي تزعمت حركة إعلان الحقوق ارتكبت ولا تزال ترتكب ضروباً من الظلم
والاستغلال ، والعدوان على الأمم الصغرى واستنزاف خيراتها ، ومنها ما مارست ولا تزال
تمارس التفرقة العنصرية في بلادها وتشجع ممارستها في أجزاء أخرى من العالم ، وتقف في صف
المغتصب ضد صاحب الحق . وتفرق في المعاملة بين الشعوب على أساس من الأهواء والأغراض
والمناافع المادية ، وتنقض ما تبرم من عهود ، وتتصدى لحركات التحرر في البلاد النامية ،
وتثير ضد قادتها المتاعب والمؤامرات ، وتستعمل الضغط الاقتصادي وسيلة لتنفيذ مآربها
السياسية ، وتسبكت على ما يرتكب في بعض مناطق العالم من فتنك وتعذيب وتشريد ، وانتهاك
لحرمان الناس ومقدساتهم ؛

هذه نواح من الخلف بين النظرية والتطبيق في موقف بعض الدول تجاه حقوق الإنسان ،
وهي نواح عدة نطالعنا بها وسائل الإعلام صباح مساء ، ونشقى بآثارها في بلادنا وتدنى أئندتنا
لمناظرها البشعة في فلسطين وما حوالها من أرضنا العربية ، وتهتز من أجلها ثقتنا في ضمير
الإنسانية وفي قدرتها على أن تلتزم برعاية الحقوق واحترام الحريات ، إن لم يكن وراها وازع
ديني يوجه سلوكها وعلاقاتها ومعاملاتها ويربط حياتها برابط عقيدة محففة سمحة ؛

موقف الحضارة الإسلامية من حقوق الإنسان :

إن العمل على احترام حقوق الإنسان - كما أشرنا يمثل التطور الذي سار فيه العالم الحديث
في هذا الميدان في القرنين الأخيرين من تاريخه ، وقد أبرزنا في القسم السابق من هذا البحث بعض

معالم على طريق التطور في حضارة الغرب ، ومن الواضح أن « الإعلان العام لحقوق الإنسان » الذي أصدرته الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٨ فضل لا يمكن أن يدعيه الغرب لنفسه ، فقد شاركت في إقراره والدعوة للالتزام به مجموعة كبيرة من الدول شرقها وغربها ، ومن دول تنتمي إلى العالم الإسلامي ، وهو عالم ذو حضارة كبيرة ، أخذت مكانها في تطور التاريخ للحضارة البشرية ، وبلغت أوج ازدهارها قبل أن يبدأ الغرب في يقظته أو نهضته الحديثة ، ومضافت آراء الباحثين في المغرب والشرق على أنها كانت ذات أثر في ميادين كثيرة من تلك النهضة . فماذا كان موقف الحضارة الإسلامية ذات التاريخ الطويل تجاه حقوق الإنسان ؟ ماذا عرفت منها ؟ وكيف عرفته ؟ هل جاءت نتيجة ثورات وحروب ؟ وهل اجتمعت جمعيات عمومية لإقراره وإصداره ؟ وما أثر هذه الحضارة على موقف أتباعها في العالم الحديث - وهم يؤلفون خمس سكانه - من الحقوق الإنسانية والحريات الأساسية .

إن الحضارة الإسلامية تدين في نشأتها وتطورها وازدهارها وإنجازاتها لدين الإسلام الذي ظهر في القرن السابع الميلادي في الجزيرة العربية على يد الرسول العربي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه . جاء هذا الدين رسالة سماوية للإنسانية عامة ، مصداقاً لما سبقه من الرسالات ، داعياً إلى إخلاص الدين لله ، وتوثيق صلة الإنسان بخالقه ، وهدايته إلى ما يحقق له الكرامة والسعادة في حياته الأولى والآخرة ، وتوجيه اهتمامه إلى جوهر الإنسانية من روح وعقل وخلق وفضيلة ، والتهوين من شأن الفوارق المادية التي لا تتصل بذلك الجوهر اتصالاً وثيقاً .

وقد تضمن الكتاب السامى الذى جاء به الإسلام قواعد البناء الضخم المتكامل الذى أقامته الحضارة الإسلامية ، فوضع أركان العبادات ، ونظم المعاملات ، ومناهج السلوك الفردي والجماعي ، وفصل الرسول في قوله وفعله ما احتاج إلى التفصيل من تلك الأصول ، وبذلك ترك للمسلمين في الكتاب والسنة دستوراً للحياة ، ونظاماً للحقوق والواجبات ، ومبادئ للسياسة والاجتماع ، كسبت قداسة وخلوداً من الشريعة التي هي جزء من لها وجوهرها ، وتغلغلت مع الدين في ضمير المؤمنين ونفكيرهم ، وانتشرت مع حضارة الإسلام في المشارق والمغارب .

وقد صحب هذه المبادئ والنظم منذ بدايتها التطبيق الواضح على يد الرسول وخلفائه ، فقد

كانت حياة الرسول - صلوات الله عليه - كلها عرضاً للنموذج الأعلى من احترام الإنسانية في كل كائن صدق عليه اسمها ، وكان موقفه من الناس جميعاً - وهو المجتبي المؤيد من السماء - موقف الأخ من أخيه ، والنظير من نظيره . وكان إذا أهل على أصحابه في مجالسهم ، وهما بالوقوف تأدباً واحتراماً ، ظهرت الكراهية في وجهه وقال لهم : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً » ، وإذا بدا على إنسان في حضرته شيء من شعور الرهبة أو التهيّب ، قال له الرسول - صلوات الله عليه - « هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » ، وإذا بدر ممن حواه ما يشعر بالمبالغة في موقفهم نحوه جاءت الآية تلو الآية ، تذكّروهم أنه ليس إلا بشراً مثلهم ، وأنه عبد الله ورسوله . وعلى هذا النهج سار الخلفاء الراشدون والصالحون من أئمة المسلمين وحكامهم وأولى الأمر فيهم خلال العصور ، وسار الفقهاء والمشرعون والكتاب وعلماء الأخلاق والسياسة من المسلمين ، يقررون نظرياً وعملياً مبادئ الحكم الصالح والمساواة والعدالة والحرية والتسامح الديني ، ويضعونها في مكانها من دستور الحياة في المجتمع الإسلامي ، ويرجعونها إلى أصولها في نصوص القرآن والحديث ، ويتبعون وثائقها في توجيهات الخلفاء ورسائلهم إلى ولاة الأقاليم ، وفي معاملة الحكم الإسلامي للأمم التي دانت له على اختلاف أجناسها وعقائدها .

وهكذا تصادفنا منذ البداية في موقف الحضارة الإسلامية من الحقوق والحريات ظاهرتان رئيسيتان :

أولاهما : أن الإسلام جعل تكريم الإنسان ركناً أساسياً في نظامه ورسالته ، وأرسى قواعد هذا التكريم في طائفة من النصوص ، يدور الكثير منها حول الحقوق والحريات الأساسية للإنسان ، وبذلك ربط بينها وبين العقيدة برباط لا ينفصم .

والثانية : أن حقوق الإنسان في الحضارة الإسلامية قد كسبت صفة الإلزام القائم على الإيمان وصفة الشمول القائم على تحقيق جوهر الإنسانية ، فلم تمنح أصولها لتعديل أو تغيير ، ولكن الباب ظل مفتوحاً على مصراعيه ، للتوسع في تطبيقها ، والترقي في فهمها حسب ترقى البشرية في ثقافتها وتفكيرها الاجتماعي والسياسي .

حق المساواة :

إن من أهم الأركان التي أرساها الإسلام في بناء حقوق الإنسان تقرير حق المساواة في الإنسانية : فقد كانت الأمم قبل الإسلام ومنها الأمة العربية تقوم مجتمعاتها على طبقات تفرق بينها فوارق من الشرف أو الضعة ، والغنى أو الفقر ، والحرية أو العبودية وبياض اللون أو سواده ؛ وكان بعض هذه الفوارق يرجع إلى طبقات كهنوتية تدعى الاستثثار بالخطوة لدى الله ، والاتصال بأسرار الغيب ، وتتحكم في إرادات الناس ومصايرهم على أساس هذه الميزة التي زعمتها لنفسها . وكان بعضها يلبسها من فارق الجلوس ، ومن إهدار حق المرأة في الحياة الإنسانية الكريمة ، كما كان بعضها يجرى من عمليات الإغارة والفتح ، وسيطرة القوى الغالب على الضعيف المغلوب ، واستثثار الأول بما لدى الثاني من موارد وخيرات :

فلما جاء الإسلام كان أول « إسفين » دقه في نظام الطبقات والفوارق بين الناس نشره عقيدة التوحيد ، التي ترجع بالخلق إلى خالقهم ، وتكشف لهم عن ضلال الشرك والخضوع لغير الله ، وعبادة المخلوقات التي لا تملك لنفسها شيئاً ، وتدعوهم أن يحرروا أنفسهم من رق الوثنية ، وأن يخلصوا العبادة لله وحده ، واقتضت حكمة الله أن يجعل هذه المعاني مثلة أبداً في أذهان المسلمين فأنزل بها قرآناً كريماً تعبد بهم بتلاوته ، وأوحى إلى رسوله أن يوجههم إليها في أحاديثه ، وأن يصل بينها وبين وجدانهم في صلاتهم ودعائهم ، ومناجاتهم لخالقهم :

هذه العقيدة هي الأساس الإسلامى الأكبر لحرىات الإنسان وحقوقه ، وهى حجر الزاوية فى إقامة ركن المساواة الذى بنى عليه الإسلام نظام مجتمعه ؛ وقد وضع الإسلام هذا المبدأ موضع التنفيذ والعمل : فوجه دعوته فى الوسط المسمى إلى الرجال والنساء ، والشيوخ والشباب ، والأغنياء والفقراء ، والأحرار ، والعبيد ، واستجاب له من كل صنف من هؤلاء جماعة تألفت منهم النواة الأولى للدعوة الجديدة ، وأخذ كل منهم بنصيبه من الجهاد لها ؛ وتحمل الأذى فى سبيلها ، وأنصأت فى نفوسهم منذ البداية فكرة المساواة الإنسانية أمام الله ، وتمثلت هذه الفكرة عندهم أوضح ما تكون فى صفوف الصلاة بين يدى الله ، فلما حدثت الهجرة إلى المدينة أخذت الشريعة تستكمل بناءها ، وتقيم على عقيدة التوحيد نظاماً من العبادات والمعاملات ، وقواعد السلوك ، كل حلقة فيه مظهر عملى من مظاهر المساواة الإنسانية أمام الله : فكل مسلم بالغ عاقل ذكراً كان أو أنثى - مخاطب بأوامر الشريعة

ونواهيها - مطالب أن يقيم الصلوات الخمس لأوقاتها ، وأن يؤدي الزكاة إذا كان مالكا لنصابها
« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » (١) ، وأن يصوم رمضان إذا انتفت عنه الموانع الشرعية
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » (٢) ، وأن يحج البيت مرة في حياته إذا
تهيأت له الأسباب « وَلِلَّهِ عَالَى النَّاسِ جِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » (٣) .

ولكلا الجنسين مكانة في نظام الوجود الإنساني : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ
ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » (٤) وكلاهما ملزم بطلب المعرفة
« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وكلاهما من حقه البيعة : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا
جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى الْأَلْ يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ ، وَلَا يَزْنِينَ
وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ
وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٥)
وكلاهما موعود بالحياة الطيبة وحسن الجزاء إذا أحسن العمل : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ
أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ » (٦) ، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض وهم مخاطبون بفروع الشريعة ملزمون
باتباع آداب السلوك الفاضل في الحياتين العامة والخاصة ، والجميع سواء في المسؤولية الأخلاقية ،
فليس للإنسان إلا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ؛

وهكذا مضى الاسلام في تحقيق دعوته إلى المساواة ، وفي تهذيب الروح الجاهلي القائم على
الفخر والاستعلاء ، والتباهى بالأنساب والأحساب ، وفي صيانة حقوق المرأة التي كانت مضیعة ،
ورد الاعتبار الإنساني إلى الطوائف التي كانت مستضعفة مهذرة الكرامة .

وإذ كانت رسالة الإسلام للناس كافة ، أخذ الرسول - صلوات الله عليه - بجوار دعوة المشركين
إلى التوحيد ، يدعو من حوله من أهل الكتب السماوية إلى الاتفاق على عبادة الله وحده ، وعدم
الإشراك به ، وأوفد رسله بنثل هذه الدعوة إلى رؤساء الأمم المجاورة وقيصرها وولايتها ، وعلى
مثل هذا الروح سار خلفاؤه من بعده في الممالك التي دانت لهم ، فلم يتخذوا من الإسلام والفتح

(٣) آل عمران آية ٩٧ .

(٦) النحل آية ٩٧ .

(٢) البقرة آية ١٨٣ .

(٥) الممتحنة آية ١٢ .

(١) البقرة آية ١١٠ .

(٤) الحجرات آية ١٣ .

وسيلة لإذلال الشعوب واستعبادها أو الاستعلاء على سكانها ، بل كان طابع حضارتهم الأخوة
والمساواة ، فالمسلمون إخوة في الدين والعقيدة ، وأهل الكتاب من غير المسلمين أحرار آمنون في
عقائدهم ونظم حياتهم ، وهؤلاء وأولئك شركاء في الوطن والمعيشة ، يفيد بعضهم من علم بعض
ومن تجاربه وخبراته ،

وتتسع الرقعة الإسلامية شرقاً وغرباً ، فتضم الحاضر والبادي ، والراقي والمتخلف ، ويشيع
في الجميع روح الأخوة والمساواة ، ويتجول السائح والتاجر وطالب العلم في أنحاء العالم الإسلامي ،
ولا يحل الواحد منهم أينما ذهب إلا بين أهل وجيران ،

وقد تلبه لمبدأ المساواة في الإسلام بعض مؤلفي العصر الحديث من غربيين وشرقيين ، ولعل
من أهم من تعمق أسرارها من مفكرى المسلمين العالم المصرى الشيخ « محمد عبده » فقد وصف
في كتاباته حالة الأمم ، والدول والرؤساء مع المرءوسين في عهد البعثة ، وأوضح كيف شلت
مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم ، ففقد الاستقلال الشخصى ، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يطلقوا
إلا لخدمة ساداتهم ، فلما قامت دعوة الإسلام نهت الناس إلى ما أودع فيهم من المواهب الإلهية
وحضتهم — ذكوراً وإنثاءً وسادة وعامة — على معرفة أنفسهم ، وأنهم من نوع نخصه الله
بالعقل وميزه بالفكر ، وشرفه بحرية الإرادة ، ثم نهتهم إلى أن الله عرض عليهم جميع ما بين
أيديهم من الأكوان ، وسلطهم على فهمها والانتفاع بها ، مع مراعاة الوقوف عند حدود
الشريعة والفضيلة ، وبذلك ارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته ، وتجلت له نفسه حرة كريمة ،
وأطلقت إرادته من القيود التي كانت تمقدها بإرادة غيره ، وصار الناس بالتوحيد أحراراً من
العبودية لكل ما سوى الله ، لا تفاوت إلا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل إلا بتفاضل عقولهم
ومعارفهم .

هذه المساواة التي جعلها الإسلام ركناً مهماً في بناء العقيدة والتكاليف الدبيلة ، تمثل جانباً
مهماً من النصيب الفعال الذي شاركت به الحضارة الإسلامية في التقدم الاجتماعى والسياسى لبني
الإنسان ، وهى تنير أمامنا الطريق في دراسة سائر حقوق الإنسان التي حرص الإسلام على رعايتها
وعنى بها مؤلفوه ومصلحوه أثناء العصور .

حرية الفكر والضمير والعقيدة :

ماذا كان موقف الحضارة الإسلامية من حرية المسلم في تفكيره الديني ، وفي طريقة فهمه للدين وشرائعه وأسراره ، وفي التعبير عما يراه في قضايا العلم وشئون الاجتماع ؟

وماذا كان موقفها من غير المسلم الذي يعيش في دار الإسلام ، ومن حريته في أن يحيا حياته الدنيوية الخاصة ، ويتعبد على طريقة دينه ، وينظم شئون حياته وفقاً لمقتضيات ذلك الدين ويشارك في تقدم العلوم والفنون في مجتمعه ، ويفيد من ثمارها وخبراتها ؟

وجه كثير من الباحثين النظر - كما أشرنا سابقاً - إلى أن العقيدة الإسلامية - فيما دعت إليه من الخضوع لله وحده - قد قررت مبدأ الكرامة الإنسانية وحرية الفرد من أغلال السيطرة والعبودية ، وقد سن الإسلام شريعة تقوم على أصول وقواعد عامة يتم بها نظام الجماعة وترك أفراد المؤمنين أحراراً في أداء شعائهم ، ولم يدع لولى الأمر أن يتدخل في هذه الحرية إلا حين يعطل أصل من أصول الدين : كأن يقوم بين الناس من ينكر وحدانية الله ، أو رسالة الرسل ، ويدعو إلى ذلك جهاراً ، أو تمنع طائفة من الناس من إيتاء الزكاة ، أو تسد على المسلمين طريق الحج ، أو أن تجاهر بالمعصية بشكل يفتن الناس ويخل بنظام الجماعة . ولهذا التدخل حدود وأوضاع مقرررة في كتب الفقه الإسلامي ، لم يترك الأمر فيها لهوى الوالى أو لسلطانه الشخصى ؟

وقد فتح الإسلام باب الحرية في فهم الدين والاجتهاد فيه للقادر عليه ، فعرف المجتمع الإسلامى منذ عهده الأول الخلاف في فهم نصوص القرآن ونصوص الحديث واستنباط الأحكام ، فتعددت مدارس تفسير القرآن ، واختلفت مذاهب علماء الكلام ، وتنوعت طرائق الاستنباط بين أئمة الفقه وكان من أهم ما حض عليه أولئك الأئمة أن يستعمل الدارس عقله ، وألا يعتمد على التقليد ، وأن يرجع إلى ما رجعوا هم إليه ويأخذ من حيث أخذوا ، ثم سارت النهضة قدما ، فأقبل العلماء من مختلف الأجناس في أقطار الإسلام على دراسة اللغة والأدب العربى ، وانصرف آخرون إلى الترجمة من التراث الأجنبى القديم في فلسفته ومنطقه ورياضته وفلكه وكتبائه وشارك في هذه النهضة المسلم وغير المسلم والعربى وغير العربى ، وأغدق الخلفاء من ألوان التشجيع على المؤلفين والمترجمين والفنانين ما جعل القرون الخمسة أو الستة الأولى من تاريخ الإسلام عصور ازدهار حضارى شامل ، وتسابق في هذا

التشجيع خلفاء المشرق وخلفاء المغرب : فكان الكتاب يؤلف في بغداد - مثلاً - فلا يلبث خليفة الأندلس في قرطبة أن يبادر إلى اقتناء النسخة الأولى منه مرخصاً في ذلك كل غال من الأموال :

عرف المجتمع الإسلامي ألوان الثقافة الإنسانية المختلفة ، وشارك فيها مشاركة فعالة ، بل كان حامل لوائها في المرحلة الوسيطة من التاريخ : فظهر الفلاسفة الإسلاميون وأقطاب التصوف وأعلام التأليف التاريخي والحاذقون في العلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ، ممن أقر لهم الغرب الحديث بالفضل ، وألفت في نظرياتهم وبيان تأثيرهم الكتب والرسائل ، وكانت كل هذه الدراسات تؤلف نظاماً شاملاً من المعرفة ، تدرسه المدارس والجامعات الإسلامية في الشرق والغرب ، ويحج إليه طلاب العلم من مختلف الأقطار ، ويكثر فيه الجدل والنقاش بين العلماء ، ومع هذا النقاش والخلاف تفيد المعرفة ، ويتسع الفكر ، ويحقق العقل الإنساني رسالته في حرية وانطلاق .

قلنا : إنه كان من مظاهر حرية الفكر في الإسلام أن تعددت المدارس واختلفت المذاهب ، وكثر الجدل بين الفرق ، وقد أخذ الخلاف أحياناً على بعض الشئون التي تتعلق بالدين وبسياسة الدولة مظاهر عنيفة ، كالتحريض كانت بين المسلمين في موضوع الخلافة بعد مقتل « عثمان » مما أدى إلى ظهور أحزاب تتصارع ويتهم بعضها بعضاً بالمرور من الإيمان ، ويستعين بالوان العلم وبما يحسنه من الثقافة الأجنبية على نصرة رأيه والتمكين لمذهبه ، ويكثر الأخذ والرد حول المتشابه من آيات القرآن ، بعد أن كان المسلمون الأولون يقفون من تلك النصوص موقف التسليم دون كثير مناقشة أو تأويل ، ثم يظهر الفلاسفة في الميدان ويواجهون بعض مسائل تتعلق بالدين في طريقة تختلف عن طريقة المتكلمين ، وينشب بين هؤلاء وأولئك جدل يبلغ ذروة تطوره على يد « الغزالي » ، و « ابن رشد » .

وقد لعب المعتزلة في تطور علم الجدل في الإسلام دوراً كبيراً ، ولتحموا مع أهل السنة في كثير من المعارك ، وكان أشدها مسألة كلام الله ، والقول بخلق القرآن ، ووصلت هذه الأزمة نهايتها في أوائل القرن الثالث الهجري ، وكان ممن اضطدوا فيها الإمام « أحمد بن حنبل » الذي أصر على معارضة رأى المعتزلة في هذه المسألة ، على الرغم من مناصرة السلطان لهم ، فضرب وحبس ، وأصابه من ذلك أذى كثير .

هذا - إذن - لون من ألوان التدخل في الحرية الفكرية ، نشأ من الخلاف على مسائل علمية تتصل بالدين ، ومال السلطان فيه مع أحد الجانبين .

وربما أخذ التدخل لوناً آخر ، كالذى أصاب « الحلاج » الصوفى (سنة ٩٢٢ م) من القتل حين خيف على عقيدة العامة أن تزيع بسبب عباراته الصوفية الرمزية اننى كان يلهمج بها ، وإن رجح بعض الباحثين أن السياسة كان لها دخل فى ذلك القتل .

ومما يعد تدخلاً فى حرية الفكر والضمير ، ما يحدث من بعض المنتسبين إلى العلم أو جمهور العامة من اتهام مفكر أو باحث بالزندقة أو الكفر ، لفهم فهمه فى بعض المسائل الدينية ، وخروج فيه على رأى المألوف المتوارث ، وأكثر ما كان هذا يحدث فى عصور الجُمود والتأخر ، حين فقد المجتمع الإسلامى الأصالة الفكرية ، وخيف على العقيدة حتى من بعض فروع العلم ؟

وقد استمرت بقايا هذه الظاهرة إلى أوائل النهضة الإسلامية الحديثة : فاتهم بعض زعماء الإصلاح بالزيف ، وحوربت بعض حركات الإصلاح الاجتماعى بدعوى مخالفتها للدين ؟

ومن المشاهد أن الرقى الاجتماعى والثقافى يجلب معه توسعاً فى فهم الحرية الفكرية ، وإفلالاً من التسرع إلى اتهام الباحثين فى عقائدهم بسبب ما يصدرونه من فتاوى وآراء .

هذه أظهر الجوانب التى قد يبدو أن الحرية فيها عند المسلمين قد صادفت عتاً وتدخلًا .

غير أن الباحث المنصف فى الحضارة الإسلامية ، وفى تاريخها العقلى والفكرى ، وفى التراث العلمى الذى أنتجته فى ميادين التفسير ، والفقه والأصول والكلام والفلسفة والتصوف لا يستطيع إلا أن يحكم أن الحرية الدينية جزء أساسى من نظام الإسلام : فالفرد حر فى أن يحيا حياته الدينية على الطريقة التى يختارها لنفسه ، وفى أن يفهم للدين بما توهمه له مواهبه وقدراته الفكرية ، وكل ذلك مشروط ألا يترتب عليه إخلال بالآداب أو مفسدة عامة ، أو تضليل للناس وبلبلة لتفكيرهم الدينى . وقد اتسع صدر الإسلام للمحافظة كما اتسع للتجديد ، وقبل أهل « السنة » كما قبل « المعتزلة » وأفسح مكاناً لأهل « العقل » كما أفسح لأهل النقل ، وأظل أهل « الشريعة » كما أظل أهل « الحقيقة » وشمل بعنايته الثقافية القومية والثقافة الأجنبية ، وانتفع بثمار الفلسفة المجردة كما انتفع بثمار العلم

التجريبى : ولم يحدث فى تاريخه أن وقفت نصوصه حائلة دون تقدم العلوم والمعارف ، وليس فى الإسلام قضية بين الدين والعلم تستعصى على التفاهم والتقابل ، وقد عنى فى كتابه السماوى بالحض على الإبصار فى النفس ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض ، ووجد مفكروه فى معارف الأمم مجالا خصباً لرياضة عقولهم ، فتقنوا هذا التراث وتمثاوه ، ثم نقلوه إلى أوربا بعد أن تركوا عليهم طابعهم الروحى والفكرى :

هذا إذن هو موقف الحضارة الإسلامية من حرية المسلم ، فإذا انتقلنا إلى الشق الثانى من الموضوع وجدنا أن الموقف الأساسى للإسلام من أهل الأديان الأخرى فى محيطه مقرر واضح فى الآية الكريمة : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا أن نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإين تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

وقد اتخذ الرسول هذه الآية شعاراً لموقفه من أهل الكتاب ، فضمنها كتابه إلى « النجاشى » عظيم الحبشة وإلى « هرقل » عظيم الروم وغيرهما من رؤساء الأمم المجاورة ، هذه هى الدعوة التى أمر رسول الإسلام أن يوجهها إلى أهل الأديان السماوية الأخرى فإن هم لم يستمعوا إليها فلهم شأنهم وله شأنه ، ولهم دينهم وله دينه .

والذى يتبع كتب الرسول إلى رؤساء الأمم من حوله يللمس فيها طابع الدعوة بالحسنى ، والنصح فى رفق وفى حزم ، فلما اتسعت رقعة الإسلام ، وأخذت الجماعات والأمم المجاورة تدخل تحت لوائه اتخذ فى معاملة تلك الأمم سياسة إنسانية قوامها التسامح واحترام الحريات ، فن أسلم من الرعية فله ما للمسلمين الفاتحين وعليه ما عليهم . ومن أثر أن يبقى على دينه وفرت له الحرية والأمن فى نفسه وماله وأماكن عبادته ، على أن يؤدى الضريبة التى فرضتها الدولة عليه لقاء هذا السلام الذى تهيئه له ، والرعاية التى ترعى بها مصالحه .

ومن الوثائق الهامة التى سجلها التاريخ فى هذه الناحية الكتاب الذى كتبه الخليفة عمر لأهل إيلياء بعد فتح بيت المقدس فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، ونصوصه معروفة مشهورة . ومثل هذا ما فعله المسلمون حين فتحوا « مصر » فقد حسموا الخلاف الذى كان قائماً بين مسيحيها ومسيحيى « بزنطة » على بعض التصورات الدينية ، وهبوا لكل فريق الحرية أن يدين بما يعتقد ووكاوا

(١) آية ٦٤ من سورة آل عمران .

إلى « البطريك » القبطى سياسة الطائفة وتدبير أمورها وإصلاح ما تهدم من كنائسها فى أيام « المقوقس » وقد قرر الباحثون الغربيون أن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التى كانت كلها فى العصور الوسطى على المسيحية وجود عدد كبير من أهل الديانات الأخرى فى ديار الإسلام ، وأن الحاجة إلى المعيشة المشتركة ، وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق أوجدت من أول الأمر نوعاً من التسامح الذى لم يكن معروفاً فى أوروبا فى العصور الوسطى ، وكان من مظاهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان ، أى دراسة المثل والنحل على اختلافها ، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم .

ولم يكن فى التشريع الإسلامى ما يغلط دون أهل الذمة أى باب من أبواب الأعمال ، وكانت قدمهم راسخة فى الصنائع التى تدر الأرباح الوفرة : فكانوا صيارفة وتجاراً وأطباء وأصحاب ضياع ، ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل فى الشعائر الدينية لأهل الذمة ، بل كان بعض الخلفاء يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم ، أما فى التقاضى فقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الممل الأخرى ومحاكمهم الخاصة بهم ، رالتى كان رؤساؤهم الروحانيون يقومون فيها مقام كبار القضاة .

أما الجزية فقد كانوا يدفعونها كل واحد حسب قدرته ، وكانت — كما يقول بعض الباحثين الغربيين أشبه بضريبة للدفاع الوطنى ، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح ، ولا يدفعها ذوو العاهات ولا المترهبون وأهل الصوامع ، إلا إذا كان لهم يسار ، ولم يكن المسلمون بدعاً فى هذا ، فقد كان الروم يأخذون من اليهودى والمجوسى ديناراً فى السنة ، وكذلك فرض النصارى على المسلمين نوعاً من الجزية لما فتحوا بعض بلادهم .

وإذا انتقلنا من شرق البلاد الإسلامية إلى غربها وجدنا منهج الحكم الإسلامى واحداً لا يتغير ، ووجدنا التسامح الدينى أساساً من أسس ذلك الحكم ، وهذه حقيقة يقررها مؤلفون مسيحيون مثل « ستالى لين بول » فى كتابه « قصة العرب فى أسبانيا » وقد جعل المستشرق الانجليزى « السير توماس أرنولد » فكرة تسامح الإسلام مع رعاياه غير المسلمين هى الفكرة الرئيسية فى مؤلفه المشهور « الدعوة إلى الإسلام » وأورد فى شأنها كثيراً من النصوص والشواهد التاريخية ، وتتبع مظاهرها فى إقليم فارس ولايات هنزلة ، وأشار بصيغة التشكيك إلى الروايات القليلة التى تناقضها وأبرز فى

مقاهلتها ظاهرة الخلافات المسيحية التي كانت متفشية قبل الإسلام بين النسطوريين واليعقوبيين ، والاضطهاد الذي كانت تصبه كل فرقة على الأخرى ، ويذهب إلى أن هذه الخلافات كانت عاملاً من العوامل التي مكنت للإسلام وسهلت تحول الكتابيين إليه .

وإذا خطونا مع الزمن إلى العصور الحديثة وجدنا الأقليات من أهل الأديان الأخرى في ديار الإسلام من أسعد الناس حالاً ، يحيون حياتهم الدينية في أمن وحرية ، وقيمون كنائسهم ومعابدهم إلى جانب مساجد المسلمين ، ويشاركون المسلمين كما يشاركونهم أولئك في أعيادهم ومواسمهم ، ويكافحون وإياهم صفاءً واحداً في سبيل استقلال بلادهم وضمان حريتها ، ويتقاسمون وإياهم أعباء إدارتها وحكمها وخدمتها ، دون طائفية أو عنصرية ، وقد نصت دساتير كثيرة من البلاد الإسلامية الحديثة ، وقرارات مؤتمراتها القومية على أن المواطنين لدى القانون سواء ، وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة ، لا تميز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة كما نصت أن من وظيفة الدولة أن تحمي حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد طبقاً للعادات المرعية في الوطن ، على ألا يخل ذلك بالنظام العام أو ينافي الآداب .

الإسلام والحياة السياسية والاجتماعية الصالحة :

وكما عني الإسلام بتقرير مبدأ المساواة وحق الحرية في الاعتقاد والفكر ، عني بتقرير سائر الأركان الضرورية لبناء الحياة السياسية والاجتماعية الصالحة : من عدل في القضاء وشورى في الأمور وكفاية في أساسيات المعيشة ، وثقة بين الحاكم والمحكوم ، وتعهد لمصالح الرعية ، واحترام للملكية الخاصة غير المستغلة ، وتضامن بين طبقات الأمة ، وتعاطف بين أغنيائها وفقرائها ، وقيام كل فرد فيها بمسئوليته وواجباته ، وما إلى ذلك من الخصائص والمقومات التي تحاول الإنسانية الحديثة أن تحققها وتجرب في ذلك مختلف المذاهب والأنظمة .

وقد وضع القرآن الكريم أساس كل ذلك في طائفة من آياته التي بنى العلماء عليها خصائص الحكم الصالح القائم على الشورى والكفاية والعدل ، من مثل قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدَّوا الْأَمْنَانَ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (١) وقوله :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ » (١) وقوله : « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ لَفِي عَهْدٍ » (٢) وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » (٣) »

وكان الرسول ﷺ - نموذجاً كاملاً لهذه المبادئ قولاً وعملاً ، فمن الوارد في كتب السنة أنه لم يكن أحد أكثر منه مشورة لأصحابه وعدلاً بينهم ومن توجيهاته في هذا قوله : « استعينوا على أموركم بالمشاورة » وقوله : « أحب الخلق إلى الله إمام عادل ، وأبغضهم إليه إمام جائر » وقوله : « لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت وإذا حكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت » ومن الأمثلة المشهورة في حرصه على إقامة العدالة بين الناس دون نظر إلى مراكزهم الاجتماعية ما روته كتب السنة من أن امرأة من بنى مخزوم - وهم من أشرف بيوت قريش - سرق ، فاهتمت قريش لأمرها وأردوا أن يشفعوا فيها لدى رسول الله ، فوسطوا في هذا « أسامة بن زيد » وكان قريباً إلى الرسول ، فلما حدثه في هذا قال الرسول : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ إنما هلك بنو إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ولما توفي رسول ﷺ - كان أول ما فعله ذوو الرأي من المهاجرين والأنصار أن اجتمعوا للمشورة فيمن يخلفه على المسلمين ، وقد أسفرت المناقشات والتشاور عن اختيار « أبي بكر » ، وتمت له البيعة العامة في المسجد في اليوم التالي :

وبذلك تقرر منذ اللحظة الأولى في الحكم الإسلامي أمران : المشورة والبيعة ، وخطب « أبو بكر » خطبته الأولى - وهي خطبة مشهورة في أدب السياسة الإسلامية ، فقرر أن الولى شخص اختاره المسلمون وولوه ، وهو عرضة لأن يحسن وأن يسيء ، وناشد الجماعة أن يعينوه إذا أحسن ، ويقوموه إذا أساء ، وأشار إلى أن مهمته الكبرى أن يأخذ لكل ذي حق حقه ، وأن ينظم أمور الدفاع عن الرعية ، والجهاد في سبيل الدعوة ، وأن يعمل على صلاح الآداب العامة ، وأن له على المسلمين الطاعة ما أطاع الله ورسوله .

(٢) آية ١٥٢ من سورة الأنعام .

(١) آية : ٩ من سورة النحل .

(٣) آية ١٣٥ من سورة النساء

وقد سار التالون من الراشدين ومن بعدهم على هذه الأصول في سياستهم ، وألزموا العمال بها والأمراء من قبلهم ، والنصوص والوثائق السياسية في هذا مستفيضة ، ومن مشهوراتها كتاب الخليفة الثاني « عمر بن الخطاب » إلى أهل البصرة حين أمر عليهم أبا موسى الأشعري ، وخطب « الإمام على » ، وعهوده ، والكتاب المطول الذي كتبه « للأشتر النخعي » ، لما ولاه على مصر ، والرسالة المفصلة التي أرسلها « طاهر بن الحسين » إلى ابنه « عبد الله » لما ولاه « المأمون » الرقة ومصر ، والتي يقول فيها « ابن خلدون » : « هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة »

هذه التوجيهات التي استمدت من تعاليم الإسلام أضيف إليها - بعد - كثير مما نقله المسلمون عن الفرس من نظم الإدارة والحكم ، وما ترجموه من كتب الأغريق السياسية ، وما استنبطه مجتهدو علماء المسلمين من أصول الدين ، فكان من كل أولئك ثروة خصبة من أدب السياسة في التأليف الإسلامي مما بحث في الولاية وشروطها ، والعدل وضرورته ، والظلم وآثاره السيئة ، والسلطان وأحواله ، والوزراء والكتاب وما يجب أن يتوافر فيهم من صفات :

وفي مقدمة « ابن خلدون » صورة مفصلة لتطور التفكير الإسلامي إلى القرن الثامن الهجري في الحكم ونظمه ، وما يتصل به من المبادئ الاجتماعية العامة . ومن فصول المقدمة في هذا فصل مشهور تحدث فيه « ابن خلدون » عن الظلم وأثره في العمران ، فقد شرح ذلك على أساس السنن العمرانية ، واستشهد له من بعض أحوال الاجتماع في الأمم السابقة ، وبين في آخر الفصل الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل واللسل والمال .

ومن القيم البارزة في نظام الإسلام فكرة الكلمة الموحدة والشمل المجتمع ، وذلك واضح ملحوظ في فكرة صلاة الجماعة والجمعة والعيد ، وتوجيه صفوف المسلمين في الصلاة إلى قبلة واحدة ، ودعوتهم من مختلف أقطارهم إلى حشد سنوي في مكان واحد ، تهرع إليه جماعاتهم وأفرادهم من كل فج ، متجردين من مظاهر الدنيا وشهوات النفوس ، يحجون ويعتمرون ، ويتعارفون ويتشاورون ، ويتبادلون ضروب المنافع والخبرات ، وقد بنى الإسلام تصوره للأمة على أساس أنها جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وقاوم الإسلام ظاهرة انقسام المجتمع إلى طبقة تبحث عن مصالحها ومنفعتها الذاتية ، وهو من شأن الثراء الزائد ، وعظم الجاه ، وهما من أشد النواحي الدنيوية لإغراء وفتنة وتعطيلاً للحقوق ، ونفر من أساليب الفرقة والانقسام ، كالمراء والجدل والفجور في الخصومة .

غير أن الحياة الإسلامية الصحيحة لم تقم على توحيد الكلمة وجمع الصفوف وتوفير الحقوق ، والحريات المشار إليها فحسب ، ولكنها عنيت كذلك بتوفير الأمن للمسلمين شعبياً وجماعات وأفراداً فدعت المسلمين إلى أن يأمنوا بأسباب للعزة والقوة التي تحفظ كيان الجماعة وتصد عنها طغيان الأعداء وتضمن لها حياة مستقرة كريمة .

لقد اقتضت حكمة الله أن تكون حياة المسلمين في « مكة » حياة صقل ومحنة وابتلاء ، وكلما رغبوا في الدفاع عن أنفسهم أشار عليهم الرسول بالصبر حتى يؤذن له في القتال ، فلما تغيرت الأوضاع في المدينة ، وتزايد أنصار الدعوة نزل الإذن بالقتال ، وتبع هذا الأذن توجيه المسلمين إلى أن يفتنوا لأنفسهم ، ويمتدوا على من اعتدى عليهم ، وبذلك أصبح الجهاد دعامة من دعائم الحياة الإسلامية ، ونزلت الآيات والسور في تنظيمه ، ووضع قواعده وخططه ، وأصبح من الواضح أن الإسلام لم يقصد إلى خلق طائفة من الزهاد المستضعفين في الأرض ، ولكنه قصد إلى خلق أمة قوية الشوكة ، منيعة الجانب ، صالحة للبقاء ، تحارب وتسلم وتأخذ من نظم الحياة ما يضمن لها العزة والكرامة والرقى وال عمران ، وشاءت حكمة الله أن يذوق المسلمون أحياناً ألم الهزيمة ، ولو شاء لعصمهم ، وأن يستمتعوا بلذة النصر ، وأن تنجى انتصاراتهم وهزائمهم وفقاً لسنة العمران في كمال الإعداد أو نقصه ، وقوة الروح المعنوى أو تخاذله ، وتنفيذ خطة القيادة أو مخالفتها .

ومن الظواهر الجديرة بالملاحظة في حروب الغزوات أنها كانت شأنها بهم الجماعة كلها غنيها وفقيرها ، رجالها ونساءها ، ومن تخلف عنها أو تعلل عن المضى إليها ، أنزل الله في تقريره محكم الآيات ، ونحamته الجماعة ، وضائق عليه الأرض بما رحبت ، حتى يتوب الله عليه .

وكانت ناحية الإعداد لهذه الحروب فرصة يعود فيها المسلمون رجالاً ونساء عادة البذل والجود ، بما ملكت أيديهم من متاع وحلى ، وينزل فيها الأغنياء عن مقادير كبيرة من ثرواتهم لإمداد المحاربين بما يحتاجون إليه من سلاح وعتاد .

إن موقف الإسلام من حق الناس في أن يعيشوا أحراراً داخل بلادهم ، وفي أن يحكموا وطنهم ومقدساتهم ضد أى اعتداء خارجي ، موقف صريح مستمد من الإدراك الحق لمعنى الإنسانية ولطبيعة العمران البشري ، وهذا الموقف الصريح مصور أروع تصوير في سور القرآن التي نزلت في المرحلة المدنية من حياة الإسلام ، حتى يستطيع القارئ لكتاب الله - إذا تتبع سور الغزوات كالأنفال وآل عمران والأحزاب وبراءة - أن يعيش في جو هذه المرحلة وأحداثها ، وأن يسجل ما أفاد المسلمون فيها من تجارب ، وحذقوا من أساليب ، وأن يتمثل الحكمة العملية التي تضمن القرآن مبادئها في موضوع الجهاد ، والدفاع عن الوطن بالنفس والمال .

لقد أدرك المسلمون منذ أول معركة خاضوها في الدفاع عن كياناتهم يوم « بدر » أن دينهم ليس دين عبادة فحسب ، ولكنه دين الحياة الإنسانية الفاضلة بكل ما تستلزمه من عمل ونظام وكفاح وأخذ بالأسباب ، وهذا المعنى هو الذي عبر عنه زعماء المهاجرين والأنصار في يوم بدر حين استشارهم الرسول ، وأراد أن يثبت من إدراكهم للموقف ، وقدرتهم على الصمود وردع الأعداء ، وقد استقر في أذهان المسلمين طوال تاريخهم أن الدفاع عن الكيان واجب وحق معاً : هو واجب يفرضه الله على المؤمنين به وبرسالاته ، ويفرضه الوطن على بنيته ، وتفرضه قيم الإنسانية العليا ، وهو حق من حقوق الإنسان بصفة كونه إنساناً يحرص على حريته وكرامته واستقلاله ويحافظ على تراث آبائه وأجداده ، ويحرص فوق ذلك على أن يبنى بعقده مع ربه ، ويأخذ بنصيبه من رضوان الله وجنته .

موازنة واقتراحات :

في دراستنا لحضارة الغرب وموقفها من حقوق الإنسان أبرزنا حداثة عهدنا بهذا الميدان وأشرنا إلى المدى الذي وصلت إليه إنجازاتها في محاولتها إقرار الحقوق ، والحريات الأساسية ، وإلى الخلف الملموس بين النظرية والتطبيق في موقف بعض دول الغرب من العناصر التي تتألف منها شعوبها ، ومن الأمم الصغرى والدول النامية واستقلالها وحقها في الوجود الكريم .

وفي دراستنا للحضارة الإسلامية بينا كيف كان الاهتمام بالحقوق والحريات الإنسانية ركناً أساسياً في بناء تلك الحضارة وفي تعامل الدين السماوي الذي قامت عليه ، وأشرنا إلى ما لها من سبق

زمانى ملحوظ فى تقرير الحقوق والحريات نظرياً وعملياً ، لا بالنسبة لاتباعها ومعتنقها فحسب ؛ ولكن لجماهير مواطنيها على اختلاف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم ، وللشعوب التى دخلت تحت راياته بحكم الحروب والفتوح ، ووجهنا النظر إلى ما سجله التاريخ وشهد به المنصفون من المؤلفين غير المسلمين من التزام السياسة الإسلامية وعلى الأخص فى عصورها الذهبية - المساواة بين الناس والعدالة فى الأحكام ، واحترام الكرامة الإنسانية ، وتوفير الأمن ووسائل العيش ، وحرية الفكر والعقيدة لأهل الأديان السماوية الأخرى فى الديار الإسلامية ، ورعاية كل من يستحق الرعاية من المواطنين دون تفرقة بسبب العنصر أو الدين ؛ وقد اقتبسنا من آيات القرآن وأحاديث الرسول ، وخطب الخلفاء وعهودهم ، وسير بعض الولاة والرؤساء طائفة من النصوص التى تقرر المبادئ العامة التى تقوم عليها حقوق الإنسان وحرياته ، ولم نشأ أن نتوسع فى إيراد نماذج من الأقوال والأعمال فى هذا الميدان مما حفلت به أمهات كتب التاريخ والسير والقضاء والفقه والأخلاق وآداب الدنيا والدين ، ومما يبين مثالية الإسلام فى احترام الإنسان إلى الحد الذى يسوى فى موقف القضاء بين الخليفة وامرأة من عامة الشعب وبين ابن الوالى وأحد أفراد الرعية ، وبين ابن عم الرسول وخصمه اليهودى ، وإلى الحد الذى يسمح لعالم أو واعظ أن يقرع خليفة المسلمين على ملأ من الجمهور على ما عده أخطاء فى حق الرعية ، ويدفع بخليفة من خلفاء الرسول أن يطلب من جمهور المسلمين فى أول توليه الخلافة إذا رأوا فيه اعوجاجاً أن يقوموه ، وبواحد من سامعيه أن يرد عليه فيقول : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بمجد سيوفنا فيعاقب الخليفة قائلاً : « الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج « عمر » بسيفه » .

وإذا كنا فى عرضنا لموقف الحضارة الإسلامية من حقوق الإنسان قد اقتصرنا على بعض الجوانب الرئيسية فإن من الحق أن نقرر أن هذا الميدان متغلغل فى التعاليم الإسلامية وفى حياة المسلمين وهو يبدو واضحاً فى رعاية الطبقات المستضعفة ، وفى إبطال التفاخر بالأحساب والأنساب ، وفى رفع قيمة العمل على حساب الثراء والجاه والسلطان ، وفى اعتبار أصحاب الأموال خلفاء لله على ماله ، بنفقوته فيما يعود على المجتمع بالخير والأمن والعزة والرفاهية ، وفى الدعوة إلى طلب العلم وعده فى مرتبة الفرائض ، وفى الحض على الدفاع عن النفس والحرمة والأوطان ، ورد عدوان المعتدى ، وإذا نظرنا إلى هذه المبادئ من نواحيها الاجتماعية التطبيقية وجدنا أن للفقير حقاً معلوماً فى مال الغنى ، وأن المسلم منهى أن يقهر اليتيم أو ينهر السائل ، ومأمور أن يعامل خدماً فى المعيشة على قدم المساواة فيطعمهم مما يطعم ويكسوهم مما يكتسى منه ، وأن المؤمن أخو المؤمن لا يحقره ولا يظلمه ولا يخذله ، وكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، ولا يفضل لعربى على

عجى إلا بالتقوى ، إن أكرم الناس عند الله أتقاهم ، والله لا يحب المفسدين ، ويبغض كل متكبر جبار ، والساعى على رزقه ورزق عياله خير من أخيه الزاهد المتعبد فى المسجد والمتكل فى معيشته على عمل الآخرين ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ومن سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار ، وخير للناس أنفعهم للناس ، وكل فرد فى المجتمع راع ومستول عن رعيته ، ولا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، والله خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ، وكلهم لآدم ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ولا حق لأحد فى أن يستعبدهم ، ومن اعتدى على المسلمين فقد وجب عليهم أن يردوا عدوانه ، ومن ظلم وأخرج من دياره فهو مأذون له بالقتال وموعود بالنصر من عند الله :

هذه الأمثلة من المبادئ التى تقرر نواحى من الحقوق والحريات ، ليست إلا أسطراً قليلة مستوحاة بلا ترتيب ولا اختيار متعمد من دستور الإسلام الأكبر ، ومن سنة رسول الله وأقوال بعض خلفائه الراشدين : وواضح مما أسلفنا من النماذج العملية فى السلوك الإسلامى فى مختلف نواحى الحياة والحكم ومعاملة الرعاية - مسلمين وغير مسلمين ، عرباً وغير عرب - أن النظر والتطبيق فى موقف الحضارة الإسلامية من الحقوق والحريات الأساسية سارا متلازمين لا انفكاك لهما ، وأن ذلك كان ولا يزال الشأن العام لتلك الحضارة فى مجتمعاتها الواسعة فى المشرق والمغرب :

ونحن حين نقرر هذا لا نغفل ما حدث وما يحدث فى بعض العصور وفى بعض المجتمعات الإسلامية من قصور أو تقصير فى الإدراك الكامل لأسرار التعاليم الإسلامية فى ميدان الحقوق والحريات مما يتمثل فى ظلم يرتكبه وال ، أو تدخل فى حرية الفكر من جانبا ذى سلطان ، أو تكديس للأموال واستئثار بالجاه والنفوذ من جانب فئة قليلة ، أو حرمان للطوائف الدنيا من الناس من حقوقهم السياسية والاقتصادية ، هذه وغيرها انحرافات موضوعية منعزلة حدثت وتحدث نتيجة جهل أو طبيعة شاذة ، أو سيطرة من جانب غاصب مستعمر تشل الإرادة العامة للمجتمع ، وتشيع البلبلة وضعف التمسك بالقيم الأصيلة ، ولكنها لا تؤلف موقفاً ثابتاً ولا طابعا عاماً ولا تنقص من جلال الموقف الذى وقفته وتنفه الحضارة الإسلامية من حقوق الإنسان : ومن أصدق الشواهد على صحة هذا ما نلاحظه فى العصر الحاضر فى اتجاهات البيئات والمجتمعات الإسلامية بعد أن نفضت عن نفسها غبار الضعف والحمول ، وراحت تجدد عهداً بتراتها ، وتأخذ بحظها من العلم والمعرفة ، لقد كان أول ما اتجهت إليه تلك المجتمعات استرداد حقها فى الحياة والحرية والكرامة ، وطرد الغاصب من ديارها ، ثم مضت تنظم الحقوق والحريات

بين مواطنيها ، وتقيم موازين المساواة والتكافل وتكافؤ الفرص ، وتقضى على كل مظاهر الطبقية ، وتجعل الشورى عماد حياتها السياسية من أصغر المستويات الاجتماعية إلى أكبرها ، وهي لا تقتصر جهودها في هذا على حياتها الخاصة وأوضاع اجتماعها ، ولكنها تنادى بمثل ذلك لكل الجماعات الإنسانية على اختلاف أسسها وألوانها ، وتناصر حركات التحرر في كل مكان ، وتعلن نقيمتها على كل ألوان البغى والعدوان والتفرقة بين الناس ، وهي في خطواتها وجهودها في هذه الميادين قد تسترشد بتجارب بعض الأمم المعاصرة وتفيد من معارفها ، ولكن ينبوع الأساسى الذى تستمد منه إلهامها وفلسفتها وقوتها وصبرها على البذل والتضحية إنما هو تعاليمها الروحية وتقاليدها الحضارية ، التى تهت على الزمن واستقرت فى الضمير والوجدان .

إن الذى حاولته الإنسانية الحديثة - ولا تزال تحاوله - فى إقرار الحقوق والحريات الأساسية قد وضعت الحضارة الإسلامية أصوله وقواعده منذ ألف وأربعمائة سنة ، وقد سجلت على التاريخ نماذج التطبيق الصحيح له ، وإن من واجب المجتمعات الإسلامية المعاصرة أن تدرك هذه الحقيقة إدراكاً واعياً ، وأن تستمد منها سبباً من أسباب الثقة بنفسها وبحضارتها ، والعصمة من الانزلاق فى مزالق التبعية وفقدان الشخصية ، وأن تزيد من جهودها وفاعليتها فى تثبيت دعائم الحقوق الإنسانية فى حياتها القومية ، وفى الدفاع عن تلك الحقوق ونصرتها فى المجتمع الدولى .

وإن من واجب الدراسة العلمية المنصفة أن تحقق ما تشير إليه القرائن التاريخية من احتمال تأثر الغرب فى اتجاهه نحو تقرير الحقوق الإنسانية منذ عصر النهضة بالتعاليم والكتابات الإسلامية ، فن المعروف أن نهضة أوروبا جاءت عقب التحام الغرب بالشرق عن طريق الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا والحروب الصليبية ، وقد أكد علماء الغرب أنفسهم تأثر الفكر الأوروبى بهذا الالتحام فى ميادين العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة وفى الكشف الجغرافية والمعارف الملاحية ، وفى الشعر والقصص : وأورد الباحثون فى تاريخ العلم أسماء عشرات الكتب العربية التى ترجمت فى أوائل عصر النهضة إلى اللاتينية وبعض اللغات الأخرى كالأسبانية ، كما أشاروا إلى أن بعض هذه الكتب ظلت مراجع معتمدة فى الجامعات الأوربية إلى عصر متأخر ، ومن المؤكد أن بعض مؤلفات الفلاسفة والمفكرين كابن سينا وابن رشد وابن طفيل والغزالي وغيرهم - وقد ثبتت ترجمتها فى تلك المرحلة - تضمنت جوانب من الفكر الإسلامى الأخلاقى والسياسى ، ومن المعروف أن علماء الغرب أخذوا منذ القرن السادس عشر يهتمون بتاريخ الإسلام وسيرة الرسول ﷺ وترجمة القرآن : وإذا كانوا لم يعرفوا ابن خلدون وكتابات غيره إلا فى القرن التاسع عشر فمن الراجح أنهم تأثروا بمنهجه وبنظرياته فى فلسفة التاريخ والاجتماع منذ ذلك الحين على الأقل .

١ - وإذن فمن حقتنا أن نفترض - ونضع ذلك الفرض موضع البحث والتحقيق - أن الفكر الأوربي منذ عصر النهضة - وفي المرحلة التي أخذ يشغل فيها بالبحث في القانون الطبيعي والقانون الإلهي ، وفي الحكومة المدنية ، وفي تحسين أحوال الطبقات الدنيا في المجتمع الأوربي - قد تأثر فيما تأثر به من الفكر العربي - بجوانب من المعارف الأخلاقية والسياسية والاجتماعية التي تضمنتها الأصول الإسلامية ومؤلفات المفكرين والمصجلين المسلمين .

٢ - هذا ونوصي بأن تولى معاهط العلم في البلاد الإسلامية مزيداً من العناية بدراسة موقف الإسلام وحقوق الإنسان ومنجزات الحضارة الإسلامية وسبقها في هذا الميدان ، حتى ينشأ الشباب الإسلامي على ثقة واعتزاز وتمسك بحضارته الإسلامية وقيمها .

٣ - كما نوصي بأن تستمد الشعوب الإسلامية من عرفانها لهذه القيم قوة وإصرار في نضالها القوي للدفاع عن حرياتها وحنوقها ، وفي إعادة بناء حياتها ، وفي نضالها الدولي لمنصرة الحقوق والحريات الأساسية لجميع الشعوب ، ومقاومة كل أساليب التفارقة من عنصرية ودينية وغيرها

قرارات وتوصيات

(أ) تشخيص مواطن الضعف في المجتمعات الإسلامية والعمل على علاجها :

(ب) العمل على دعم الروابط بين المسلمين ونوثيق صلاتهم بمجمع البحوث الإسلامية الذي أنشئ ليكون ملتقى لقادة الفكر الإسلامى ولينمض بمهمة التوجيه في نشر الدعوة وإعداد الدعاة الذين يستطيعون النهوض بواجبهم الدينى الكبير .
إن هذه أممكم أمة واحدة وألا ربكم فاعبدون .

الشتون الاجتماعية والخضارية

أولاً : بشأن موقف الإسلام من الرق الفردى والجماعى :

جاء الإسلام معلناً مبادئ الحرية والمساواة والإخاء ، تكريماً للإنسان الذى لم يفضل فيه جلس على جنس ، ولا لون على لون .

ولما كان الرق منتشرأ فى جميع الأمم قبل ظهور الإسلام فقد عمل الإسلام بوسائل شتى على مقاومته مقاومة تلتهى إلى محوه ، وجعل هذه الوسائل جزءاً من الدين :

وإذا كان بعض الأفراد أو الهيئات قد احترف منذ القرون الوسطى وماتلاها تجارة الرقيق عن طريق القرصنة والاختطاف فإن الإسلام ينكر ذلك إنكاراً قاطعاً ، ويعده خروجاً على الدين :

لهذا يسجل المؤتمر :

أنه لا يوجد الآن فى أى جزء من أجزاء العالم رق يقره الإسلام ، ويستنكر باسم الإسلام كل محاولات الضغط والعدوان على الحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات ، ويعتبر ذلك استرقاقاً أكثر جرماً من الاسترقاق الفردى القديم ، ويدعو المسلمين إلى مقاومة كل ضغط أو عدوان على حقوق الأفراد والشعوب ويعد هذه المقاومة جهاداً مقدساً يفرضه الدين الحنيف وتحتمه الدعوة الإسلامية :

ثانياً : بشأن مقومات الحضارة الإسلامية وأثرها في سعادة البشرية ورقمها يسجل المؤتمر أن الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة ، وأنه دين ترق حضارة يشرع للحياة في صورتها المتكاملة .

وبوصى بما يلي : -

١ - أن تعمل السلطات التعليمية في كل بلد إسلامي على تقرير دراسة الحضارة الإسلامية مادة أساسية في الجامعات ومعاهد التعليم .

٢ - أن تدرس كل أمة إسلامية لغة من لغات شقيقاتها متخذة من ذلك أداة للتفاهم والتقارب الثقافي .

٣ - أن تعنى الأمم الإسلامية جميعاً بدراسة اللغة العربية ، لغة القرآن والتشريع ، حتى يكون ذلك سبيلاً إلى الاتصال المباشر بلغة الوحي ، وإلى الاشتراك في تذوق أسرار الإعجاز القرآني والعودة بالثقافة الإسلامية إلى ما كان لها في القرون الأولى من وحدة وشمول .

أولاً - في الدعوة الإسلامية والمجتمع

١ - يوصى المؤتمر بمجمع البحوث الإسلامية بالتخطيط والتنفيذ للدعوة الإسلامية في صورها المختلفة في داخل الجمهورية العربية المتحدة وفي سائر العالم الإسلامي .

٢ - لقد تواصل أعضاء المؤتمر على أن يتابعوا بالمشر والتنفيذ قرارات المؤتمر وتوصياته في بلادهم عند عودتهم إليها ، وعلى أن يوفوا الأمانة العامة للمجتمع بدراساتهم وتقاريرهم عن شئون المسلمين في بلادهم ، ولا سيما ما يتصل منها بالعمل على تنفيذ قرارات المؤتمر وتوصياته وبخاصة ما يتعلق منها بمكائنة المسجد ووظيفته وعلاقة الشباب بدينه ، ومدى ما قام به مجتمعه في سبيل المعركة المقدمة التي يخوضها العالم الإسلامي ضد الصهيونية والاستعمار .

٣ - وفي سبيل إحكام الصلة بين المجمع وبين المسلمين في خارج الجمهورية العربية المتحدة

يوصى المؤتمر بجمع البحوث الإسلامية بالعمل على تأليف لجان بالخارج ، من بين أعضاء المؤتمر ومن غيرهم من الشخصيات الإسلامية لتكون كل لجنة من هذه اللجان على اتصال دائم بالمجمع للقيام بواجبات الدعوة وتنفيذ قرارات المؤتمر وتوصياته ، وكذلك للعمل على تبادل الزيارات والوفود بين علماء الأزهر من الجمهورية العربية المتحدة وبين غيرهم في مختلف البلاد الإسلامية .

٤ - كما يوصى المؤتمر المجمع بالعمل على إنشاء مكاتب تابعة له في خارج الجمهورية العربية المتحدة من بين قوى الكفاءة والغيرة من موظفيه ، يكون من مهمتها العمل على توثيق الروابط بين الأزهر وبين المجتمعات الإسلامية المختلفة ، وعلى تنفيذ مقررات مؤتمر المجمع وتوصياته ، وعلى إمداد المجمع بالدراسات والمعلومات التي تساعد على قيامه بأهدافه في خدمة الرسالة الإسلامية .

٥ - ويوصى المؤتمر بجمع البحوث الإسلامية بإنشاء لجان محلية في داخل الجمهورية العربية المتحدة تكون على اتصال مباشر بالمجتمعات الإقليمية ، ووسائل الإعلام بجاعة من أهم أهدافها : التوعية والتوجيه للمعركة مع إسرائيل بشتى الطرق .

٦ - يوصى المؤتمر بطبع المخطط الصهيوني التوسعي ، في خريطة ، مع صفحة أو ثلاث لتفسيره وترجمته ، وإرسال نماذج منه لكل دولة إسلامية ومجتمع إسلامي ، ليطلع منه ما يدرج في برامج التعليم ، وما يعان على الناس من منابر المساجد ، وبجميع الوسائل ، حتى يكون جميع المسلمين على بينة مما يدبره الأعداء ضد الإسلام والمسلمين .

٧ - يوصى المؤتمر قادة المسلمين في جميع بقاع العالم الإسلامي أن يوجهوا المسلمين إلى نبذ الخلافات الطائفية ، وأن يجمعوا أمرهم مع سائر المسلمين على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

٨ - يؤيد المؤتمر دعوة جمعية الشبان المسلمين لإنشاء :

(أ) اتحاد عام للشبان المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

(ب) دار للفكر الاسلامي ، تعمل على نشر الثقافة الإسلامية على النطاق العالمى باللغات المختلفة .

(ج) مؤسسة مالية إسلامية ، يشترك فيها المسلمون أفراداً وهيئات وشعوباً وحكومات ،
يقوم التعامل فيها على أساس من الشريعة الإسلامية ؛

٩ - يستبشر المؤتمر بالجهود التي تبذل لتدريب الدعاة من أئمة المساجد والوعاظ والارتفاع
بمستوى كفاءتهم في أدائهم لرسالة الدعوة ، ويؤيد كل ذلك ويرجو له شمول النفع ؛

١٠ - يوصي المؤتمر بتوثيق الصلات بين الأزهر والجامعات الإسلامية الأخرى في أنحاء العالم
وذلك بتبادل الأساتذة والطلاب والكتب وبجميع الوسائل الأخرى ؛



الجزء الرابع

[illegible]

تصويب

التوجيه الاجتماعي الجزء الرابع

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب	صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	٢٢	تصنيف	تصنيف	٦٧	١٩	م صنا	محصنا
١٤	٢٢	الأمر	الأزهر	٧٠	٢٣	من آ	من آمن
١٥	١٠	المالة	الحالة	٧٠	٢٤	ور	ولاهم
١٥	١٥	كه	كلية	٧٢	١٤	وليهوى	وليقيوى
١٦	١٨	حياتهم	صلاتهم	٨٠	١٢	وديه	وديعه
١٦	٢٠	كه	تركه	٨٦	١	باردان فى	باردا فى
٢٩	١١	بعضهما	بعضها	٨٦	٢٤	صله من مانه مثقال	حله من مانه مثقال
٣٠	١٥	للمشافى عصرنا	للمشافى فى عصرنا	٨٦	٢٤	فقرض	فقرأ
٣١	٨	مغادراتهم	مغادرتهم	٨٨	١٤	وبعرض عما انقصه	وبعرض عما انقضى
٤٣	١	أحواله	أحواله	٩٠	٢١	و . فام	وبقيام
٤٣	٤	فن	فن	٩٧	١	اعتناا	اعتناء
٤٥	٩	أن الله يعلم	أن الله يعلم	٩٧	٨	محب	محب
٤٦	٨	ولكن	ولكن	١٠٠	٣	الصفافه	الصفافسى
٤٧	٤	ما وص به	ما وصى به	١٠٠	٩	و	وفى
٥٤	١٧	مرة بالكين يدمر	مرة باللين ومرة	١٠١	٢٥	خاشية	حاشية
٥٤	٢٣	بالحق	بالحق	١٠٩	٢	العرب	الغرب
٥٨	١	إلى النظر الآيات	إلى النظر فى الآيات	١١٥	١	طريق	طريق
٥٨	٣	من الغنى	من الغنى	١١٨	٤	جج	حجج
٦٢	١٨	عالمقا	عالمما	١٢٣	١٠	مُسَلِّمُون	مُسَلِّمُون
٦٢	٢٢	أمام	أيام	١٢٦	٢٤	آية : ٩ من	آية : ٩٠ من سورة
٦٥	١	درنما	ورنما	١٢٨	١	انقسام	انقسام
٦٧	١٤	إرشاء	إرشاد	١٣٥	٦	وأنا	وأنا

إنتاج
المحررون العرب للبحر
ت ٩٢٢٠٥٥

رقم الايداع ٧٢ / ٣٣٥٩

مطابع العرب
القاهرة - طابعت
ت ٩٢٤٦٨ / ٩٠٠٤٩٨